كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهاب

شرح الأستاذة

أناهيد بنت عيد السميري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّوجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الخامس

كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهاب

اللّقاء الحادي والعشرين _____ ٤

اللّقاء الثّاني والعشرين _____ ٣٢

اللّقاء الثّالث والعشرين _____ ٥٩

اللّقاء الرّابع والعشرين _____ ٨٧

اللّقاء الخامس والعشرين _____ ١١٦

اللّقاء الحادي والعشرين

١٦ جمادى الآخر ١٤٤٠

باب ذكر إرادة العلوّ والفساد

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكّلنا على الله، نبدأ اليوم -إن شاء الله- في كبيرة أخرى غير الكبائر الّتي مرّت علينا دراستها. قد كنّا انتهينا من كبيرة سوء الظّنّ؛ وسوء الظّنّ كبيرة متعلّقة بالكبيرتين اللّتين كانتا قبلها، وهي: الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله. اليوم سنأتي على كبيرة مختلفة، وهي: كبيرة إرادة العلو.

التّعليق على الدّليل الأوّل موطن سورة القصص (٨٣)

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب، رحمه الله، في كتابه الكبائر: (**باب ذكر إرادة العلو والفساد**: وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: «لا يُؤمنُ أحدكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ»[٢] أخرجاه.

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥).

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالَ: «لاَ يُؤمنُ أحدكُمْ حتَّى يكونَ هواهُ تَبعاً لما جِئْتُ بهِ»[1].)

أورد المؤلّف -رحمه الله- ثلاثة أدلّة في هذا الباب. الدّليل الأوّل هو الدّليل المعتمد في معرفة هذه الكبيرة، والحديثان التّاليان من باب تتميم وبيان ما يجب أن يكون عليه العبد، فسنأخذ وقتنا الأكبر في الآية الّتي في سورة القصص.

يقول الله عزّ وجلّ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، إشارة إلى ما عند الله؛ ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، **المقصود بها:** ما عند الله من النّعيم.

﴿نَجعَلُهَا﴾، لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ **إذًا:** العاقبة المحمودة تكون لمن هذه صفته.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ نعيمها يكون للّذين عاشوا لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، وإذا كان هذا هو وصف أهل النّعيم؛ سيكون خلافه وصف أهل الجحيم، **يعني:** نعيم الدّار الآخرة سيكون لمن ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ **إذًا:** في الدّار الآخرة الجحيم يكون للّذين يريدون في الأرض علوًّا وفسادًا.

إذًا: بالمقابلة عرفنا: إنّما هي عبارة عن كبيرة تُدخل صاحبها الجحيم. كيف عرفنا أنّ العلوّ كبيرة؟ ماذا قال الله عزّ وجلّ؟ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، نعيمها،

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٥).

يكون لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، فهذه هي حالهم. وجحيم الدّار الآخرة يكون لمن؟ للّذين يريدون في الأرض علوًّا وفسادًا.

هذا معنى مجمل للآية. **بقي أن نعرف**: ما معنى إرادة العلوّ والفساد؟ لأنّه لاحظي: في الآية قال: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾، يعني: لم تأتِ بعدُ أفعالًا؛ وإنّما مجرّد إرادة. وسنرى هذه الإرادة تظهر فعلًا بعد ذلك.

المُلاحظ: أنّ هذه الآية في خاتمة سورة القصص، فمن المؤكّد أنّ السّورة تتضمّن حقائق عن إرادة العلوّ والفساد، أتت آخر السّورة تقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وعلى هذا سنبدأ السّورة من أوّلها. سنذهب للسّورة، ونرى: سورة القصص ما القصص الّتي فيها يوصلنا لهذا المعنى، الّذي هو: أنّ الدار الآخرة ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، **ويصير معنى ذلك**: أنّ الّذي يريد العلوّ والفساد فله في الدّار الآخرة الجحيم، وتصير إرادة العلوّ كبيرة من كبائر الذّنوب. نقرأ من بداية السّورة إلى الآية (٤):

﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

من أوّل السّورة أتى الخبر عن قصّة فرعون، وأوّل آية حُكي فيها عن شأن فرعون، جاءتنا فيها كلمة ﴿عَلَا﴾، فيكون النّموذج الأوّل للعلوّ، هو: علوّ

(١) القصص: ١_٤.

فرعون. وأنت انظري: في الآيات ستجدين أنّ الله -عزَّ وجلَّ- وصف فرعون بخمس صفات:

الصّفة الأولى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

الصّفة الثّانية: ﴿وَجَعَلَ أَهلَهَا شِيَعًا﴾.

الصّفة الثّالثة: ﴿يَسْتَضعِفُ طَآئِفَةً مِّنهُم﴾.

الصّفة الرّابعة: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾.

الصّفة الخامسة: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

إذًا: ما صورة علوّه؟ ﴿وَجَعَلَ أَهلَهَا شِيَعًا﴾، ﴿يَسْتَضعِفُ طَآئِفَةً مِّنهُم﴾، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ **مقابل هذا:** ربّنا قال:

الوعد الأوّل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

الوعد الثّاني: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾.

الوعد الثّالث: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

الوعد الرّابع: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

الوعد الخامس: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

---

(١) القصص: ٥_٦.

فكان فرعون له خمس صفات، ووُعِدَ بنو إسرائيل بخمسة وعود في مقابل تلك الصّفات؛ هو ﴿عَلَا﴾، والله أراد أن يمنّ عليهم.

وكلّما زدت قراءة في القصّة، كلّما زاد لك فهم معنى (العلوّ) من موقف فرعون. هذا الموقف مشهور وواضح، وفي سورة القصص خاصّة كان ظاهرًا جدًّا كيف كان يريد أن يكون في حالة من العلوّ، فجعل الله -عزَّ وجلَّ- إرادته في العلوّ وسيلة لعلوّ موسى عليه السّلام!

أليس هو من قرّر أن يذبّح أبناءهم؟ بلى، ماذا حصل لمّا أراد هذا؟ ذبّح الأبناء فخافت أم موسى على ابنها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ماذا حصل؟ هو الآن بعلوّه (ذبح)، ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[2]، يعني: السّبب الّذي به أراد أن يكون في حالة علوّ، هو السّبب بالضّبط الّذي به حصل له الذّلّ والإهانة: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، **يعني**: هم ما فعلوا هذا، وما أخذوه ﴿لِيَكُونَ﴾، ﴿حَزَنًا﴾، **يعني**: هنا هم ما أرادوا! هنا اللاّم ليست للتّعليل؛ وإنّما هنا اللاّم للعاقبة، **يعني**: هم التقطوه، فكان عاقبة التقاطه أن كان ﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

ولماذا حصل الالتقاط؟ لأنّ أمّه ألقته. ولماذا أمّه ألقته؟ لأنّها خائفة. لماذا هي خائفة؟ لأنّه من مكره، وإرادة علوّه، أراد أن يذّبح؛ فهذه الأولى جاءت بهذه

---

(١) القصص: ٧.

(٢) القصص: ٨.

الأخيرة، وهذه الأخيرة كانت سببًا لأن يكون ﴿عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؛ وهذا فعل الله، الّذي يبدأ بإظهار العلوّ يكون مكره في العلوّ هو سبب لهلاكه.

هذه القصّة مهما قرأتها لا تنتهي الفوائد منها، وفي كلّ سورة وردت قصّة موسى وفرعون؛ وردت تبيّن جزءا من هذا الحدث العظيم؛ في سورة القصص كلّ القصّة وردت لتبيّن لك هو يعلو ويُظهر مكره بالعلوّ والفساد، ومكره هذا نفسه هو الّذي يأتي من ورائه الإصلاح والعلوّ لموسى -عليه السّلام- يعني: هو يريد العلوّ فيكون مكره سببًا لعلوّ خصمه.

هذا في بداية السّورة، وقد أخذت القصّة مسارًا طويلًا في السّورة، إلى أن نصل إلى نهاية السّورة، لنجد قصّة أخرى، يعني سورة القصص ما فيها إلّا قصّتين: قصّة فرعون في البداية، وقصّة قارون في النّهاية؛ وقصّة قارون أظهر في مسألة (العلوّ)؛ فلأنّها قصيرة ستظهر لنا بسرعة إرادة العلوّ عند قارون، سنبدأ من الآية (٧٦)، هذه القصّة هي الّتي سنأخذ فيها وقتا لبيان (العلوّ)؛ حيث أنّه سيكون واضحًا جدًّا بيانه.

لكن سنرجع مرّة ثانية نؤكّد: القصّتان في سورة القصص، كلاهما أتيا لتوضّحا

⇐ كيف يكون مريد العلوّ والفساد؟

⇐ وكيف أنّ الله يعامل مكره بضدّ قصده؟

فهو يفعل هذا كلّه تجبّرًا، فيأتي فيلتقط موسى الّذي سيكون عاقبة شأنه أنّه هو العدوّ والحزن.

التّعليق على دليل موطن سورة القصص (٧٦)

نرى قارون أيضًا ماذا فعل؟ سنبدأ في قارون بالتّفصيل، سأبدأ من الآية (٧٦):

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[1].

هذه الآية مليئة بالأخبار، أوّلًا بدأت الآية بقوله: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، يعني: على خلاف فرعون؛ ففرعون كان من الأصل ليس من قوم موسى، وكان عدوًّا لهم، لكن الآن في إرادة العلوّ لا يفرق لا من كان من قومك ولا الّذي من خارج قومك! كلّهم حين يريدون العلوّ تظهر عليهم آثار هذا.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾، وكان الواجب عليه أن يواسي موسى عليه السّلام، ويواسي قومه! لكن هو ماذا فعل؟! **انظري**: ربّنا يقول: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، ترتّب على أنّه من قومه شيء مخالف لما يجب أن يكون! كان المتوقّع أنّه مادام من قوم موسى، ماذا سيفعل؟ سيواسيهم، سيكون معهم، إلى آخره، لكنّه فعل المفاجأة: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾! بمعنى ماذا؟ (البغي)، **بمعني**: العدوان؛ والعدوان له أشكال وألوان، سيتبيّن الآن.

---

(١) القصص: ٧٦.

والآية تقول بغيه هذا سببه أنّه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾، يعني: سبب البغي إتيان الله له الكنوز، ولاحظي الآية ﴿آتَيْنَاهُ﴾، هذا فعل من؟ فعل الله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾.

ووصف الله لنا كنوزه بحيث أنّه يبقى قارون على مرّ الزّمان مثلًا للأغنياء الّذين وصل غناهم -كما نعبّر نحن- إلى الغنى الفاحش. فقال الله -عزَّ وجلَّ- في ذلك أنّه: آتاه ﴿مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾، انظري: مفتاحًا صغيرًا كم سيزن؟ قليلًا! لكن لأنّ الخزائن كثيرة فنفس المفاتيح ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، يصعب على ﴿الْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، أن يحملوها من كثرتها. من كثرة الخزائن؛ لأنّ المفاتيح الكثيرة ستدلّ على خزائن كثيرة؛ والمفاتيح ما تكون ثقيلة في العادة، لكن لأنّ الخزائن كثيرة فصارت مفاتيحها كثيرة، فصارت ثقيلة. وهذا غاية البيان لحاله من الغنى!

ثمّ إنّها ﴿لَتَنُوءُ﴾، **يعني**: تثقل، بمن؟! بواحد؟! أو باثنين؟! أو بثلاثة؟! أو بأربعة؟! ﴿بِالعُصبَةِ﴾، الجماعة. وأيضًا هناك لهم صفة هؤلاء الجماعة، **وهي**: أنّهم ﴿أُوْلِي القُوَّةِ﴾، يعني مثل هذا لو واسى قومه ما واساهم، وأعطاهم ما أعطاهم، سيبقى عنده من الكنوز!

الآن قومه ينصحونه ولا يحسدونه، يعني قومه إنّما هم الأتقياء الّذين هم حقًّا يرون أنّ قارون في حالة حرجة ولابدّ أن ينصحوه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ونحن في كبيرة الفرح فهمنا أن المقصود بالفرح المنهي عنه: الفرح الّذي يؤدّي إلى الأشر والبطر؛ والآن كذلك سيزيد المعنى ونفهم: أنّ الفرح هو الّذي يؤدّي إلى إرادة العلوّ.

إذًا معنى هذا الآن: أنّ قومه وعظوه، فقالوا له: (لابدّ أن تسلك في هذه النّعمة مسلك المؤمنين الّذين ليسوا لمّا حصلوا على النّعمة استغنوا عن ربّهم وعصوه). **إذًا:** ما هي نتيجة الفرح المنهي عنه؟ نتيجته أن يقع في قلب الإنسان -والعياذ بالله- الاستغناء عن الله! كأنّه يقول: (لماذا أعبد ربّنا؟! فعندي ما أريد!) فيحصل بسبب نعمة الله -والعياذ بالله- الاستغناء عن الله! فيكون قد رسب في الاختبار مباشرة؛ لأنّ الله يعطي النّعمة، يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر امتحانًا للخلق. (يبسط ويقدر)، يضيّق على الخلق؛ فالّذي يبسط عليه يمتحنه بالبسط، والّذي يضيّق عليه يمتحنه بالتّضييق، وكلّهم مُختبرون أنّه: ماذا تظنّ بربّ العالمين؟ -كما مرّ معنا في كبيرة سوء الظّنّ- إذا أعطاك، ماذا تظنّ؟ وإذا منع عنك، ماذا تظنّ؟

فهذا لمّا أُعْطِيَ ظنّ أنّه: (هو المالك، هو صاحب القرار، هو يعصي ويفسق ويفعل ما يريد، هذا المال كما هو، وهذه الحال كما هي، ولا شيء سيتغيّر وهو سيّد الموقف وسيّد نفسه وسيّد كلّ شيء)! فقال له قومه لمّا لاحظوا عليه هذا: ﴿لَا تَفرَح﴾ الفرح المنهي عنه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾، هذا الفرح المنهي عنه.

أوّل نهي أنّه: ﴿لَا تَفرَح﴾. جاء الأمر الثّاني الآن من الواعظين وليس من الحاسدين: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾[1]، لأنّك أصلا هذا الّذي مُلِّكْتَهُ من مال في موقف قارون، ومن أيّ شيء مُلّكته في موقفنا (من صحّة، من فهم، من ذكاء، من علم)؛ إنّما هو اختبار. فابتغ بما مَلَّكَكَ الله في الحياة

(١) القصص: ٧٧.

الدّار الآخرة؛ لأنّ الدّار الدّنيا تُعْبَرُ ولا تُعْمَرُ؛ إنّما الدّار الدّنيا مكان لتعمير الآخرة؛ فلأجل ذلك قال له قومه: ﴿ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾، اقصد ﴿فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾، اقصد في أن تعمّر آخرتك، وإذا عمّرت آخرتك ستُعمّر دنياك ولابدّ؛ فأمّا دنياك فلا مشكلة فيها. ولأجل ذلك قالوا له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا﴾! لا تخف على الدّنيا! إذًا: هذا المطلب الثّاني.

فما هو المطلب الأوّل؟ ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

والثّاني: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا﴾، يعني: افهم المسألة بشكل صحيح؛ وكلّ القضيّة أنّك لو فكّرت بشكل صحيح، وعرفت الحقائق اليقينيّة، ستتصرّف بشكل صحيح. وإذا عرف الإنسان هو من أين أتى؟ وإلى أين سيذهب؟ عرف ماذا يجب أن يفعل. ولو عرف أين مسكنه الحقيقي، عرف ماذا يجب عليه أن يفعل. هو يزرع من أجل أين يحصد، عرف متى يزرع. وأين يزرع. وأين سيحصد. لكن كلّ المشكلة تشويش في التّفكير. التّشويش في التّفكير ما سببه؟ من أسبابه المُلْك. فالمُلْك من أسباب التّشويش في التّفكير لأنّ الإنسان حين يملك ما يظنّ أنّ ملكه يزول!

ونضرب مثالًا بعيدًا عن المُلْك من أجل أن تتصوّرا: الآن جوّ شتاء، والهواء بارد والنّاس مستمتعون بذلك، ومن كثرة شعورنا بهذه المشاعر قد نسينا تمامًا أنّه قد يأتي صيف. وحين يأتي الصّيف، النّاس لا يمرّ على خاطرهم أنّه قد مرّ عليهم شتاء! في الشّتاء لا يفكّرنا في الصّيف وفي الصّيف لا يفكّرون في الشّتاء! وهكذا الإنسان رهن الواقع وينسى ما وراءه، فانظر: كيف هي مشاعرنا الآن والدّنيا شتاء ننسى حتّى أن نسأل أنفسنا: (لماذا لا نفعل كذا؟

لماذا ليس لدينا حوش[1]؟ لماذا ليس لدينا كذا نخرج فيه؟)، وننسى أنّنا بعد ذلك سيأتينا الصّيف، وكذا، وكذا، سيحصل لنا! بهذه الطّريقة الإنسان إذا ملك شيئًا يظنّ أنّ هذا الملك لا يزول! إذا كان عنده صحّة في الشّباب تجده يقول طوال الوقت: (انظر لهذا العجوز! انظر لهذه العجوز!) على أساس أنّه سيبقى شابًّا طوال حياته! ويفعل الأفاعيل في نفسه وفي بدنه على أساس أنّ بدنه هذا باقٍ في مكانه! فحين يصير عجوزًا هو بنفسه فلا ينفع حينها الكلام!

فالمقصد: أنّ هذه هي حالتنا العقليّة، أنّنا مساكين رَهَائِنُ الواقع وما نفكّر فيما وراء الواقع! لا نفكّر أنّ هذه العطيّة اسمها اختبار. هذا الوقت اسمه شتاء، وسيأتي صيف. هذا الوقت اسمه الصّحّة، وسيأتي غيرها! ولذلك أوصانا نبيّنا الكريم -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه خذ خمس لخمس، وخذ من صحّتك لمرضك؛ وأنت صحيح لا يمرّ على بالك أنّك تمرض، فلا تُعجّل في قراءة وردك، أو تخاف أن يعرض عليك مرض، فلا تفكّر في هذا أبدًا على أساس أنّنا باقون على نفس الحال! فهذا الّذي يُغرّ النّاس، أنّهم دائمًا يشعرون أنّهم باقون في مكانهم! والّذي يفهم ويرتّب أفكاره جيّدًا يعرف أنّ هذه عطيّة تناولها وليست ملكه وإنّما تناولها وبعد ذلك تردّ لصاحبها؛ ولذلك من أسماء الله: "الوارث" الّذي يرث عن الخلق كلّهم ما أعطاهم، يعطيهم ويرث عنهم، فهو الأوّل الّذي أعطى وهو الآخر -سبحانه وتعالى- الّذي إليه ترجعون.

---

(١) **حَوْشُ الدار**: فِناؤها.

قال له قومه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، كن مطمئنًّا أنّه لا يمكن الله -عزَّ وجلَّ- يقول لك استعدّ للآخرة والدّنيا لا تعيشها! أصلًا أنت لا تقدر أن تعمر الآخرة بدون أن تعيش في الدّنيا، ومطلوب منك أن تعيش حياة كريمة من أجل أن تبقى نفسك كريمة، ومن أجل أن تعبد الله في أحسن حال، **لكن الّذي يهمّك هو**: من أكون عند الله؟ وليس بأن تطمئنّ للدّنيا، وتجد بأنّه لك في الدّنيا مكانة وأنت ناجح فيصير هذا هو الفوز العظيم عندك! لا! ليس هذا هو الفوز العظيم! ولا حتّى يطلق على هذا فوز! وإنّما هو اختبار وامتحان. أن يرفعك فهو اختبار وامتحان، أن ينجّحك فهو اختبار وامتحان، أن يعطيك مالًا فهو اختبار وامتحان، أن يرزقك ما تريد فهو اختبار وامتحان، فلا يوجد فوز هنا في الدّنيا! ولذا في القرآن تأتي كلمة الفوز على ما عند الله، منها: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1]، فليس هنا الفوز؛ وإنّما هنا فقط ورقة اختبار وراء ورقة اختبار.

الشّاهد الآن: أنّهم قالوا له ماذا يجب عليه أن يفعل.

ووصلنا للمسألة الثّالثة، رَقَّوْهُ الآن: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، أوّل شيء ماذا فعلوا به؟ قاموا بعمليّة، أو أمره بالتّطهير (التّخلية): ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وبعد ذلك بدأوا (بالتّحلية)، قالوا له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، ثمّ أيضًا علوّه أعلى من ذلك، فقالوا له: (أنت في حالك هذه يمكن أن تكون مُحسنًا بامتياز؛ لأنّك ستنفق، وستفعل، وستفعل، ولن تتأثّر ولن

(١) آل عمران: ١٨٥.

تحسب حسابات. فأنت مفاتيح خزائنك تحملها العصبة أولي القوّة وما تستطيعها. فأنت بامتياز ستكون محسنًا)؛ ولذلك قالوا له: ﴿وَأَحسِن﴾! والمهمّ في الكلام: ﴿وَأَحسِن كَمَآ أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ﴾! وسترين الآن: كيف أنّ هذه ﴿أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ﴾ تقع في مقتل عنده؟! وكيف سيجيب عليها؟! سيجيب على هذه بأنّ الله هو الّذي أحسن إليه!

ثمّ أعادوا مرّة أخرى ونبّهوه، وأحاطوه، وحذّروه، أنّ الإنسان حين يصير عنده مُلك يصير عنده طغيان! وحين يصير عنده مُلك تصير عنده حالة من حالات فقدان تصوّر الحقيقة. فيفقد تصوّر أنّه من الممكن أن يزول عنه ملكه. والملك لله يزيله عمّن يشاء، ويعطيه لمن يشاء، وهذا من أشهر ما نعرفه عن ربّ العالمين: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾[1]، فهذا شأن الله. **لكن سنرجع نقول:** نحن رَهَائِنُ الواقع. وهذا من ضعف الانتفاع بكتاب الله، ومن ضعف الانتفاع بما ورد في سنّة رسول الله، ومن ضعف الانتفاع بالأحوال الّتي يمرّ بها النّاس، أنت أكيد في حياتك إذا ما قرأت تاريخيًّا فأنت تقرئين واقعيًّا أنّ أناس كان عندهم ملك ونزع الله منهم المُلك. فهذا ليس بالشّأن الصّعب لكن دائما الشّيطان يحيط الإنسان بإحاطات تفقده التّركيز. من أبسطها الآن: (مفهوم الموت). الموت هذا، هل هناك أحد الآن يقدر أن يقول منطقيًّا إنّه لن يأتيه؟! لا! لكن دائمًا الشّيطان يُشعرك أنّ الموت يذهب للنّاس، وأمّا أنت فلا عليك! وهذا مثل أيّ شيء آخر في المفاهيم الّتي تحفّزك أن تفعل.

---

(١) آل عمران: ٢٦.

ثم قالوا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، عادوا وحذّروه؛ **إذًا:**

- بدؤوه: ﴿لَا تَفرَح﴾!
- وانتهوا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾!

لماذا؟ لأنّه حين يصير هناك مُلك يصير هناك فساد! وحتّى لو كان الإنسان يملك ريالًا، ونفسيّته أنّه صار أحسن من غيره؛ مباشرة يأتي الفساد. يعني: المشكلة ليست في الكثرة والقلّة؛ وإنّما المشكلة في التّفكير، أنّ الإنسان إذا شعر أنّ هذا تحت ملكه فإنّه يحصل منه الإفساد إذا ما كانت هناك تقوى!

سنرى الآن: ماذا كان ردّه على وعظهم، خصوصًا على جملة: ﴿وَأَحسِن كَمَآ أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ﴾! كان جوابه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[1]، أنا الخبير! أنا الفهيم! أنا الدّارس! أنا المتعلّم! أنا المجتهد! أنا الفاعل!...كلّ الّذي يأتي من هذا الكلام، تحت هذه الجملة، وهو اعتقاده، هذا الكلام معناه: أنّ الله لم يحسن إليه؛ إنّما هو الّذي بذل واجتهد! ونسي تمامًا حقائق هو وحده لابدّ أن يكون شاهدًا عليها، وكلّ منّا حين يَصْدُق يرى ببصيرته الحقيقة، **فيرى**: كيف في أوّل الأمر مدّ الله له بالسّبب وكيف أنّ الله وفّقه في السّبب وكيف أنّ الله -عزَّ وجلَّ- شرح صدره لهذا السّبب وكيف أنّه من غير جهد منه، فُتح له في الأمر، وشُرح له الصّدر، وفُتحت له الأبواب مشرعة وهو لا جهد له! فالصّادق صاحب البصيرة يرى.

---

(١) القصص: ٧٨.

ومن أجل ذلك حين يتميّز الإنسان في شيء (في علم، أو في تجارة)؛ حين يسأل نفسه: (من أين؟ ماذا كانت نقطة البداية؟)؛ فدائما نقطة البداية لا تكون فيها ملامح واضحة. **والسّبب**: أنّ الإنسان لا يستطيع أن يتذكّر: كيف شُرِح له صدره؟ كيف سيق إلى هنا؟ كيف ترك كذا؟ كيف فُتِحَ له في كذا؟ كيف أحبّ كذا؟ كيف كره كذا؟ هذا كلّه بيد الله! وكم تُغْلَقُ أبواب يحزن الإنسان عليها، تكون من أجل فَتْحِ أبواب أخرى. ولو كانت باختياره لهلك! لكن حين تُطْمَسُ البصيرة، ينسى الإنسان كلّ هذه الحقائق ويأتي أحد يقول له: (قل لنا عن مسيرتك العلميّة؟ قل لنا عن مسيرتك التّجاريّة؟ أو الاقتصاديّة؟)، فيجدها فرصة: (وفعلت! وسهرت! وأنا دائما أفكّر!) فتأتي الفرصة أن يمدح نفسه!

وانظري في أبسط موقف: الآن أنت كبيرة وتدرّسين ابنك الصّغير، وأكيد بما أنّك كبيرة وتفهمين الأمر فستأتي أشياء تقولين له: (إنّ هذه مهمّة. أكيد أنّ الأستاذ سيأتيك بها في الاختبار.)، وفعلا تأتي في الاختبار، فيأتي الولد يقول لك: (كلامك كان صحيحًا يا أمّي)، فتقولين: (أنا قلت لك من البداية، أنا أمّك أفهم وأعرف!) فقط وجدنا فرصة! وهكذا هو الإنسان! وليس بأنّ: (ربّنا وفّقنا، ربّنا أعطانا)؛ وإنّما مباشرة: (وأنا! وأنا!) ومطلوب منّا أن ندعو: «أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»[1]، وفي رواية الإمام أحمد لنفس الحديث: «إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي، تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ»، يعني: لو كنت

(١) أخرجه النسائي (٩٠٩٥).

صاحبه القرار: «تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ»[1].

فحين تُفقد البصيرة ينسى الإنسان الحقائق، ويقلبها في صالح الفَهم الشّيطاني! وهذا قد فهمها بنفس الطّريقة: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾! فيقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ مَنْ؟ ﴿مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ﴾ ما صفته؟ ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، لكنّ البصيرة قد طُمِسَت، فيظنّ نفسه أنّه لن يُهلك! وأنّه باقٍ! وأنّ ملكه سيحميه! **الشّاهد**: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[2]!

كلّ هذا النُّصْح الّذي نصحوه إيّاه، على الأقلّ كان استحى وسكت وقعد في بيته! لكن هذا النُّصْح لمّا وقع في قلب آثم مليء بالتّكبّر والعلوّ، ماذا فعل؟ قَلَبَ النُّصح بالضّدّ! وبعدما قالوا له: (﴿وَابتَغِ﴾ ولا تفسد)، انتقل هو للطّرف الثّاني، أراد أن يخرج متباهيًا بما عنده! فخرج يريد أن يجد نفسه فوقهم! - لتتصوّروا إرادة العلوّ- هو ماذا سيستفيد حين يخرج ﴿عَلَىٰ قَومِهِ فِي زِينَتِهِ﴾؟! هل سيزيد ماله؟! هل سيزيد جاهه؟! ماذا سيشبع في نفسه؟! سيشبع في نفسه أنّ النّاس ينظرون له نظر المعجبين وهو يُمتّع في نفسه هذا المرض! مرض أنّه: (أنا أعلى منكم وأنا أحسن منكم، أنتم تحت وأنا فوق!) وهذا هو الّذي سيأتي في نهاية السّياق: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، فقط يريد أن يرى نفسه هو فوق وهم في الأسفل! وقد حقّق له بعض قومه هذا الشّأن، لكن لابدّ أن نعرف صفة القوم الّذين حقّقوا له هذا الشّأن: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٠٥).

(٢) القصص: ٧٨.

زِينَتِهِ﴾، مباشرة: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]، مريض وهم مرضى. مريض يريد أن يرى في عيونهم الإعجاب والانبهار بدنياه فيخرج عليهم بزينته، يريد أن يصير هو الأعلى فيحكم مشاعرهم.

تصوّري: حين تكون سعادة إنسان أن يرى النّاس معجبين به أنّه هو فوق وهم أقلّ منه أمامه حقيرون! يعني: سعادته في أن يقع في قلب من حوله أنّه هو في العلوّ وهم في السّفول! هذه هي سعادته! وهذا مرض عظيم في القلوب، فالمؤمن الّذي في قلبه تراحم، لا يُبرز طعامه، ولا شرابه، ولا يُشهر شيئًا منه، حتّى لا يكسر قلب أحد ما عنده، لا أن يأتي ويخرّج نفسه بزينته على الخلق لأجل أن يقول: (انظروا أنا أين وأنتم أين؟!)

وهذه الحال الّتي كانت في قارون لازالت تكرّر إلى قيام السّاعة يخرج النّاس على أقوامهم بزينتهم، فهذه الآن مع كلّ الوسائل المساعدة على أن يخرج النّاس على القوم بزينتهم، زاد المرض تفاقمًا وزاد الّذين يريدون الحياة الدّنيا كثرة! والطّرفان مريضان:

⇐ الّذي خرج على قومه في زينته يريد أن يعلو في نفوس النّاس، ويريد أن يرى الإعجاب، ويريد أن يرى كم هم محتقرون لأنفسهم! يشعرون بأنّهم لا يعيشون!

---

(١) القصص: ٧٩.

⇐ والطّرف الثّاني الّذي يُعظّمه أيضًا مريض لأنّه ماذا تكون الدّنيا حين لا تحترم نفسك وتحفظ كرامتك؟! على الأقلّ من باب حفظ الكرامة الإنسان يمتنع عن مثل هذا.

ثم وصفهم ربّ العالمين وصفًا بالغًا في البيان، ماذا قال لنا: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فهذا هو المرض الأساسي أنّهم ما همّهم إلّا مكانهم في الدّنيا، وهؤلاء بلغة المعاصرين الّذين كلّما رأوا أحدًا خرج بزينته يأتي يقول لك: (وهل نحن نعيش؟! انظر للنّاس الّذين يعيشون!) وكلّ فترة يأتيك بأناس يعيشون بالطّريقة الّتي يتصوّرها هو بأنّهم وصلوا للغاية في العيش.

قال الله -عزَّ وجلَّ- أنّهم قالوا: ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾! رأوا ﴿إِنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؟ لماذا ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؟ لأنّه عنده الدّنيا.

سنرى القوم الآخرين: الأطبّاء الآن في الموقف. فهو كان مريضًا وهؤلاء مرضى أيضًا! فمن هم الأطبّاء؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[1]، الّذين أوتوا العلم لهم صفة واضحة، يعرفون:

- ✓ من أين أتوا؟
- ✓ إلى أين المصير؟
- ✓ ماذا يجب علينا أن نفعل هنا؟
- ✓ كم هذا الممرّ الّذي نعيشه قصير؟

(١) القصص: ٨٠.

لا تقدّر نفسك عند ربّك على أساس ما أنت موجود عليه هنا في الدّنيا! لا العطيّة تدلّ على رضا الله ولا المنع يدلّ على سخط الله.

إنّما الّذي يدلّ على رضا الله: كم أنت تبتغي الدّار الآخرة؟ هذا هو الّذي يدلّ على رضا الله.

والّذي يدلّ على سخط الله: كم أنت تريد الدّنيا؟ وكم يهمّك أن تكون عاليًا فيها وتريد النّاس أن يكونوا أقلّ منك فيها ودائمًا تنافسهم عليها؟

فالعطيّة في الدّنيا، والمنع في الدّنيا، لا يدلّ لا على سخط ولا على رضا، يعني: الّذي أعطاه الله ليس شرطًا أن يكون راضٍ عنه، والّذي منعه الله لا تظنّي أنّ المنع دليل السّخط.

ما دليل الرّضا؟ وما دليل السّخط؟

⇐ الّذي يرضى الله -عزَّ وجلَّ- عنه إنّما أقبل على ربّه يبتغي الدّار الآخرة، عنده قليل أو عنده كثير فهو يبتغي الدّار الآخرة.

⇐ ودليل السّخط أن يكون الإنسان ما له شغل إلّا الحياة الدّنيا يصارع عليها ويريد العلوّ فيها، يعني: الآخرة ليست على باله أبدًا! ولذا كلّ فرصة يكون أعلى من غيره فيها، ينفذ فيها أسرع ما يكون، ما حالته هذا؟ يبحث عن أحد يستطيع أن ينافسه في الدّنيا، ثمّ يبحث عن شيء عند هذا المنافس بحيث أنّه يأتي به أحسن منه!

عند النّساء مثلًا: الحُليّ، الملبس، أيّ شيء من هذا، البَسِي وتجمّلي لا أحد يناقشك في الموضوع، على حدّ عدم الإسراف، لكن متى يأتي العلوّ؟ يأتي العلوّ

حين يكون كلّ تفكيرك: (أن ألبس وأصير أحسن من فلانة!) طبعًا النّاس عادة لا يفكّرون في (فلانات) كلّهم! ليس شرطًا كلّ (الفلانات) لكن فقط عندهم فلانة واحدة أو اثنتان، فقط هؤلاء! يعني: أمام المرآة ركّزوا تفكيرهم طوال الوقت مع هذه بأنّه: (أصير أحسن! وهكذا ستُعجب بي!) فتصير هناك معركة. وطبعًا فإنّه كلّما تفشّى المرض تكثر (الفلانات)! ويصير الواحد يريد جمهورًا أكثر كما هو معاصر. لكن بداية المرض أن يكون هناك أحد محدّد بعينه هو الّذي يُراد أن يُعلى عليه. يعني حين يصل النّاس مثل قارون في المُلك، يصيرون يريدون أن يكونوا أعلى من كلّ النّاس على الجمهور كلّهم. وحين يكونون أقلّ وأقلّ يصيرون على قدرهم!

فالمقصد: تريد أن تخرج على قومها في زينتها، لماذا؟ لأجل الانبهار! وفلانة هذه تحصل لها المشاعر الّتي تكون تريدها لها! والمرّة القادمة تدخل في منافسة جديدة! والحياة عبارة عن معركة لأجل أن يتنافس النّاس ويصيروا أعلى! فلا يأتي مع هذه الإرادة أنّه: (أين مكاني عند ربّ العالمين؟)، لا يأتي هذا مع هذا! إذا بحثت هنا، وبذلت؛ سيبدأ يقلّ الاهتمام بهناك: (وهل سأكون على منابر من نور؟ هل سأكون محشورة مع الأنبياء والصّدّيقين والشّهداء؟)، مشغولة: (كيف أنّ الله سيلقي عليه حجابه؟ ماذا سيقول؟)، لأنّه «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»[1]، ففي ذلك الوقت من ستكونين؟ فهذا هو الانشغال أو الانشغال الآخر.

(١) أخرجه مسلم(١٧٦٢).

فالمقصد: أنّ هناك صفة واضحة، **الّتي هي**: إرادة الدّنيا، **جاء في المقابل**: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، **وقد اتّفقنا الآن**: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، ما هو أهمّ شيء في فكرهم؟ في فكرهم أنّهم يعرفون هم من أين أتوا؟ إلى أين يذهبون؟ وفي هذا الطّريق ماذا يجب عليهم أن يفعلوا؟ أّن هذا ليس من أجل هنا وإنّما من أجل هناك؛ فإنّهم يعيشون ويأكلون ويشربون وينامون ويعيشون حياتهم طبيعيّة، لكنّ أنفاسهم مع غاياتهم أنّه: (من سأكون عند الله؟).

وقد مرّت معنا كثيرًا تلك القصّة اللّطيفة الّتي بين النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وبين الصّحابي الّذي كان يأتي من البادية، ويجده النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- في السّوق، ويحتضنه من الخلف، وقد كان دميم الخلقة، فكان النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يقول في ذاك الموقف: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ»؟ فالصّحابي قال للرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- -وكان قد سمع صوته وعرف أنّه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- ويحتضنه من الخلف- : «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا»، من يشتريني؟! يعني: لا قوّة ولا بدن ولا جمال ولا أيّ شيء! فيقول له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ أَوْ قَالَ : أَنتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ»[1]، فهذا هو الّذي يشغل المشغولين أنّه: (من نكون عند ربّ العالمين؟)، وفي ليلتنا هذه الّتي ستُقبل علينا، نعرف أنّه من السّنّة أن نُصلّي على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-؛ فالمصلّي على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في ليلة الجمعة أو في أيّامه كلّها لابدّ أن يتذكّر أنّه حين

(١) الشمائل المحمدية للترمذي (٢٣٧).

يصلّى على الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-؛ الله -عزَّ وجلَّ- يصلّي عليه بتلك الصّلاة عشرًا، يعني: في السّماء عند ربّ العالمين يُذكر هذا الفلان ويُثنى عليه، إذا صلّى على الرّسول مرّة واحدة أثنى الله عليه في السّماء عشرًا، **فمعناها:** أنّك تصيرين مذكورة في السّماء! وهذا ما يشغل أهل الإيمان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾. لماذا ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾؟ لأنّ الدّنيا معارك، وهذه المعارك مع نفسك ومع النّاس المحيطين، نفسك تتوق للعلوّ تريد أن تنافس مع المتنافسين، فحين تجدين النّاس كلّهم يتنافسون ويحاولون أن يرفعوا أنفسهم؛ تحتاجين إلى صبر كثير من أجل أن تخرجي من هذه السّاحة، ساحة النّزاع (من أفضل؟! ومن أحسن؟!). وانظرن الآن في الجوّالات، وانظرن في السّاعات، اخترعها النّاس ليطّلعوا على الوقت فقط، هذا هو المقصود؛ فإذا كان الأصل تحقيق هذا المقصود يصير كلّ الّذي نراه الآن بابًا من أبواب المنافسة: (هم لبسوا هكذا، وأنا ألبس أعلى منهم)! بهذه الطّريقة!

وأيضًا الجوّال، النّاس أخذوه من أجل أن يستفيدوا منه، لأجل أن يتواصلوا به، وما إن تنتهي السّنة إلّا وتجد النّاس يغيّرونه؛ كلّ هذا في حكم الجواز: جائز -نحن الآن ما نتكلّم في حكم الجواز ما دمنا ما وصلنا إلى حدّ الإسراف، فنحن مناقشتنا ليست حول يجوز أو لا يجوز- **إنّما مناقشتنا حول:** لو أنّ النّاس ما دخلوا في المنافسة هل كنت أنت ستنافسين؟!

نحن نفعل مثلما يفعل الصّغار بالضّبط! فالآن في البيت هذه لعبته أمام عينيه، نقول له: (العب بها فنحن قد اشتريناها لك غالية الثّمن!)، ولكن لا

يلعب بها. يأتي ولد الجيران وبمجرّد أن يمسكها (تحلى في عينيه) وتحدث مضاربات! ويخاصم عليها! لماذا؟ لأنّ هذه هي الطّبيعة الإنسانيّة، بمجرد أن نجد النّاس يهتمّون بشيء ويتنافسون عليه، نتنافس ونريد أن نكون أعلى منهم! **هذا هو المهمّ عندنا:** أن نكون أعلى منهم!

وهذا يدخل في أبواب كثيرة في التّربية، ويدخل في أبواب كثيرة في العلاقات، أمر غاية في الصّعوبة من جهة بيانه واقعيًّا، لكن الله يبيّن لنا هو -هذا أهمّ شيء- يبيّن لنا لنطهر من هذه الجريمة؛ لأنّ مشكلة هذه الجريمة: أنّ صاحبها حين يترك نفسه فيها سيخرج من ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، ويدخل في ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، **معناه:** أنّ الإنسان يريد الحياة الدّنيا، فلا يكون من ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، فعرفوا حقيقة الحياة الدّنيا.

﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾، الّذين كلّما وجدوا ساحة معركة يتعارك فيها النّاس حول من يكون أعلى، ينسحبون منها ويخرجون ولا يعاركون من أجل أن يعلوا في الدّنيا.

هذه الحال الآن الّتي كان فيها قارون، وكان فيها الطّرفان، ﴿خَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، انقسم النّاس إلى قسمين: أناس ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، وأناس ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، وقد عرفنا حال كلّ واحد منهما.

سنرى الآن: كيف سيعامله الله؟ ماذا قال الله عزّ وجلّ؟ ﴿فَخَسَفْنَا﴾، وهذه الفاء تدلّ على ماذا؟ على السّرعة، **يعني: كأنّه يُقال:** خرج على قومه في زينته فخسفنا به وبداره الأرض، **يعني:** ما أن خرج إلّا وحصل هذا له. ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾، سنرى النّتيجة الآن، ألم يكن هو من البداية

مستغنيًا؟ ويرى أنّه مادام عنده ماله فلا شيء يضرّه. قال الله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ﴾، هو بنفسه ﴿مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾؛ فكلّ هؤلاء الّذين كانوا حوله لن ينصروه، بل هم أوّل الهاربين! وهو بنفسه صاحب المال ﴿مَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾! ولو تأمّلتنّ -في نفس السّورة- في موقف فرعون سترين نفس المعنى: حيث أنّ العلوّ، العلوّ، العلوّ، وبعد ذلك تأتي اللّحظة الّتي ينقصم فيها هذا صاحب العلوّ! يعني: يبلغ حدّه الأعلى، وانظري: فإنّ قارون لم يُخْسَف به وهو في بداية الأمر؛ وإنّما خُسِفَ به لمّا وصل في إرادة العلوّ أن يخرج على قومه في زينته! ماذا فعل الله له؟ خسف به ﴿وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[1].

دعنا نرى الآن: الطّرفين، الطّرف المهمّ الآن، من؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، فهم قد فهموا المسألة، وقبل أن يُخسف به كانوا متأكّدين أنّ هذا لا يرضي الله، وأنّ خاتمته لابدّ أن تكون مناسبة لبدايته، مادام أنّه أراد العلو **إذًا لابدّ أن**: يعامله الله بعكس مقصده، لكن ماذا يحصل له؟ أزمة اقتصاديّة! يموت! يُحْرَق! الله أعلم ما نوع الّذي سيزيل ملكه؟ لا ندري. لكن مادام أنّه علا وتجبّر؛ سيعامله الله تمامًا خلاف مقصوه، فهذه ثقة ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

بقي علينا الطّرف الثّاني، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾، يعني: هؤلاء لمّا كانوا ينظرون له نظر الإعجاب، كانوا يقولون: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾! ماذا يريدون؟ يريدون أن يكونوا مكانه! الآن ﴿يَقُولُونَ

---

(١) القصص: ٨١.

﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾[1]، اكتشفوا أنّ بسط الرّزق ما يدلّ على الرّضا، وتضييقه ما يدلّ على السّخط، ثمّ يتبيّن لهم أمر، أو يثنون على الله أمر أعظم من هذا، **يعني: أوّلًا**: هذا الموقف كأنّه كشف لهم البصيرة، تبصّروا بأنّ الغنى والفقر لا علاقة لهما، لكن الله يبسط على من يشاء، ويقدر على من يشاء، فالّذي عنده، عنده لأنّ الله أعطاه واختبره بالعطاء، والّذي ما عنده فلأنّ الله ما أعطاه واختبره بعدم العطاء.

أعظم من هذا في أنفسهم، فالأولى كانت البصيرة، أعظم من هذا قالوا ماذا؟ ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ لماذا هم الآن رأوا أنّ هذه من المنّة العظيمة؟! لأنّ الّذي يتمنّى مثل هذه الحالة يشارك أهلها في إرادة العلوّ! يعني: هو الآن جالس ليس لديه مال، لكنّه يتمنّى أن يكون من أهل المال من أجل أن يخرج على النّاس: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، من أجل أن يفعل نفس الفعل، «فَهُمَا» -كما في الحديث- «فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ»[2]، حين يتمنّى هذه الكبيرة. وهذا الجزء من الكلام -إن شاء الله- نزيد بيانه المرّة القادمة.

المهمّ أن نتصوّر: أنّهم رأوا المنّة العظيمة ونحن مرّ معنا "قصّة أصحاب الجنّة"، هل تذكرن الإخوة الّذين عزموا على أن يمنعوا الفقراء حقّهم، ماذا حصل؟ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[3]، لمّا حصل في نفوسهم العزم قبل أن يحصل التّنفيذ وقعت عليهم العقوبة؛ **فإذًا لابد أن تلحظي قلبك**: من تريدين أن تكوني أنت؟

---

(١) القصص: ٨٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٦٢).

(٣) القلم: ١٩.

فهم يقولون: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وهذه الاكتشافات بعد تجربتهم، أكيد أنّها ستكون مثل الشّمس في نفوسهم.

وأنت تقرئين هذا لابدّ لليقين الّذي في قلبك أن يجعل هذا الاكتشاف مثل الشّمس، **يعني**: كونك قرأت هذه القصّة، **وفهمت**: أنّ الله يبتلي النّاس أفرادًا وجماعات، بأن يكون عندهم ما يخرجون به بزينتهم على قومهم فيفتنوهم. فأنت لا تُفْتَنِي مع المفتونين، واعلمي ما توصّل إليه هؤلاء، لمّا تبصّروا تبيّن لهم أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر؛ فعلوّ من علا، وسفول من سفل؛ إنّما كلّه من ابتلاءات الله للخلق، ما يزيد على ذلك ولا ينقص شيئًا، **لكن أهمّ شيء**: ماذا تفعلين بما أعطاك الله؟

وصلوا إلى النّتيجة الأخيرة، وهي: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. بعد هذا كلّه قال الله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1]، **إذًا**: هذا هو موطن شاهدنا، فكانت قصّة قارون في آخر السّورة، وقصّة فرعون في أوّل السّورة، ماذا تقول؟ هؤلاء لا يصلحون للجنّة، هؤلاء لا يصلحون لنعيم الجنّة. ما هو السّبب في كونهم لا يصلحون؟ أنّهم يريدون العلوّ. وإرادة العلوّ تجلب إرادة الفساد. وإرادة العلوّ من لفت نظر النّاس وإعجابهم بهذا الّذي عنده، فيقع في نفوسهم -سيرجّعنا هذا الكلام للكبيرة السّابقة- فيقع في نفوسهم سوء الظّنّ بالله! يعني: ماذا تتوقّعين من شابّ ليس في قلبه يقين بالله، ثمّ يرى النّاس وهو في ضيق من شأنه -الله قدر عليه

(١) القصص: ٨٣.

رزقه، أو قدر عليه وعلى عائلته رزقهم- ثمّ إنّه يفتح في هذه الأجهزة ويرى النّاس أين يعيشون؟! وكيف يعيشون؟! وكلّ واحد منهم يحكي عن كذا! وكذا! هل سيقفلها وهو راضٍ عن ربّه؟ هل سيقفل وهو يشعر بأنّه راضٍ عن الله ومطمئنّ لأقداره؟ غالبًا يأتي الفساد من جهة أنّ النّفوس لا ترضى عن الله حين ترى السّعة على غيرها والضّيق عليها.

فإذًا: هذا النّوع من إرادة العلوّ، الّذي فيه أنّ الإنسان يسعى دائمًا لإظهار نفسه أعلى من غيره بحيث أنّ الّذي يراه يجد أنّه دائمًا يشحذ في عيون النّاس الانبهار به، يريد أن يكون النّاس دائمًا منبهرين به! ويريد أن يقول لهم: (أنا أعلى منكم وأنتم أقلّ منّي!) حين يخرج عليهم بهذه الحالة، **فكّري فيهم**: ماذا سيكون في قلوبهم لله؟ ما يكون إلّا سوء الظّنّ بالله! لماذا؟! لأنّه في نفوسهم: (لماذا ربّنا أعطاهم وما أعطانا؟! لماذا وسّع عليه ونحن ما وسّع علينا؟!) ومرّ معنا فيما سبق: أنّ المؤمن أُمر من رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أن ينظر في الدّنيا إلى من هو دونه، وهذا أحرى ألّا يحتقر نعمة الله، فحين يخرج على القوم بزينته يجعلهم ينظرون إلى من هو أعلى منه وفي هذا من الإفساد ما فيه!

قال الله عزّ وجلّ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، **فالمسألة معناها**: أنّك طوال الطّريق ستلقين أحوالًا من الممكن أن تعلي فيها على غيرك بعلم، أو بحفظ القرآن، بأيّ شيء فليس شرطًا أن يكون المال؛ وإنّما بالفهم أو بأيّ شيء:

✓كوني متّقية أن تنسبي النّعمة لنفسك.

✓وكوني متّقية أن يكون من مقاصدك أن تكوني أعلى من النّاس.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللّقاء الثّاني والعشرين

٢٣ جمادى الآخر ١٤٤٠

تابع باب ذكر إرادة العلوّ والفساد

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكّلنا على الله، نُكمل ما بدأناه في الكلام حول دراسة الكبائر، وقد مرّ معنا فيما سبق الكلام عن الكبائر، وكيف أنّ المؤمن كما يجب عليه أن يعرف وجوبًا ما أمر الله. يجب عليه أن يعرف ما نهى الله عنه. وهذا من باب الامتثال لسلوك الصّراط المستقيم؛ لأنّ الله -عزَّ وجلَّ- قد أمرنا أن نستقيم على الصّراط، وكلّما أردنا الاستقامة على هذا الصّراط وجب معرفة طرفيه، طرفي الصّراط المستقيم، **يعني:**

- ⇐ ما أوجب الله.
- ⇐ وما نهى الله عنه.

وهكذا لا يمكن للسّائر أن يسير إلّا حين يعرف: ماذا يحدّه من يمينه؟ وماذا يحدّه من شماله؟ وقد مرّ معنا في هذه الكبائر أنّ هناك كبائر قلبيّة، **يعني:** هناك ذنوب يعملها القلب، وهناك ذنوب تعملها الجوارح؛ والأكثر خفاءً، **هي:** الذّنوب الّتي تعملها الجوارح.

الّذي لفت نظرنا فيما درسنا أنّ الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه قد خصّ سورًا من القرآن تعلّمنا هذه الكبائر والذّنوب، وتحذّرنا منها، وهذا لا يجعل لنا عذرًا عند الله أبدًا. حين نلقى ربّنا، يكون قد أقام علينا العذر تمامًا، فالقرآن تامّ البيان فيما يجب أن نفعل وما يجب أن لا نفعل؛ بل في تدارسنا الأسبوع الماضي تبيّن لنا بوضوح أنّ سورة القصص، دائرة كلّها حول **"مرض العلوّ"**، وأنّ هذا المرض مفسد للبلاد والعباد، وإذا أُصيب به الإنسان ما يُفسد نفسه فقط؛ وإنّما يُفسد نفسه ومن حوله! ودليلنا على أنّ هذا المرض يُفسد من حوله **"قصّة قارون"**، فإنّ قارون ما فسد وحده إنّما فسد، وأفسد! **والسّبب**: أنّ الّذي في قلبه إرادة العلوّ دائمًا يخرج على النّاس بزينته، فيكون أثر خروجه على النّاس بزينته أن يفسد قلوب النّاس، ويجعلهم غير راضين عن الله، ويحصل في قلوبهم ما يحصل من الحقد والغلّ لأصحاب النّعمة؛ والشّريعة قد حدّت أصحاب الغِنَى، فأخبرتهم ماذا يفعلون. وحدّت أصحاب الفقر، وأخبرتهم ماذا يفعلون.

فقبل أن نكمل في الكلام عن كبيرة العلوّ؛ لابدّ أن نتوقّف عند النّقطة الّتي ناقشناها المرّة الماضية، **وهي**: أنّ الّذي كان في قلب قارون من إرادة الشّهرة، يريد أن يصير مشهورًا. ويريد أن ينظر له النّاس نظر الإعجاب، وما كان يُشْبِع قلبه مع أنّ أمواله كثيرة! لكن لم تكن أمواله هي الّتي تهمّه؛ هناك شيء أصبح يهمّه أكثر من الأموال، ما هو؟ الإعجاب! إحساسه بأنّ النّاس يشعرون أنّه هو أعلى وهم أدنى! وهذا مرض الشّهرة اليوم انتشر انتشارًا عظيمًا وأصبح داء النّاس! فقبل أن ننتقل لإكمال الأدلّة؛ لابدّ أن نتّفق على ثلاث مسائل

غاية في الأهميّة هنا عند موقف خروج قارون على قومه في زينته: نبدأ بالمسألة الأولى، المرّة الماضية تناقشنا فيها، لكن اليوم نزيدها بيانا:

المسألة الأولى: عطاء الله للعبد من الدّنيا لا يدلّ على رضاه، ومنع الله للعبد من الدّنيا لا يدلّ على سخطه: **إذًا**: لا التّوسّع في الدّنيا يدلّ على الرّضا ولا الضّيق في الدّنيا يدلّ على السّخط، **يعني**: الغنى، والفقر، كلاهما لا يدلّان على الرّضا. ما الّذي يدلّ على رضا الله؟

- ✓ التّوفيق للعمل الصّالح.
- ✓ العصمة من الذّنوب.
- ✓ القلب الّذي كلّما دخل في ذنب شعر بالألم فتاب واستغفر.
- ✓ الاستقامة على الطّريق المستقيم.
- ✓ حرارة القلب تجاه الذّنوب.
- ✓ سرعة التّوبة من الذّنوب.
- ✓ انشراح الصّدر لطاعة الله.

هذا الّذي يدلّ على الرّضا، أمّا الدّنيا وجودها وعدمها لا يدلّ على الرّضا أبدًا، ولا يدلّ على السّخط في مقابل ذلك. هذه هي النّقطة الأولى المهمّة جدًّا.

نأتي للمسألة الثّانية: الغنيّ أمرته الشّريعة بمجموعة أوامر، أمرته أوّلًا أن يعلم أنّ المال مال الله، وأنّ الطّلب إنّما يكون من الله، وأنّ الغِنَى رزق من الله، وأمرته أن يتقرّب بهذا المال إلى الله ويعتبره نعمة للقربى، وليس نعمة لمجرّد

التّمتّع والشّهوة؛ ولذلك ماذا قالوا لقارون؟ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[1].

إذًا: هناك مجموعة أعمال شرعتها الشّريعة (منها الزّكاة، ومنها الصّدقة)، **يعني**: المال هذا يصبح قُربة إلى الله، ولا يُصبح سببًا للعلوّ على النّاس؛ هذا بالنّسبة لصاحب المال الغني.

وبالنّسبة للفقير، قيل لهذا الفقير: (اتّق الله! لا تطمع فيما عند النّاس! لا تنظر لمن فوقك! انظر لمن هو دونك)، قيل له: (لا تغلّ! لا تحسد!)، قيل له: (خذ الأسباب وادع ربّ العالمين).

لكن في نهاية المسألة المهمّ أن نفهم هذين النّقطتين: أنّ الشّريعة أمرت الغَنِيَّ بأوامر تجعل الغِنَى سببًا للقربة، وأمرت الفقير بأوامر تجعل الفقر سببًا للقربة؛ فالأقدار الّتي نزلت عليك غنى كانت أو فقرًا، قُدّرت وانتهى. ما هو المطلوب منك؟ أن تجعلي هذه الأقدار سببًا للقربة.

ألم يقل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ»: هذا قدر الله أن تصيبك سَرّاء، ما هي وظيفتك؟ «شَكَرَ»: هذا اتّباعك للشّريعة، «شَكَرَ»: هذه وظيفتك. الجزاء من ربّ العالمين: «فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

«وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ»: هذا قَدَرٌ قدّره الله، أنت ما هو موقفك أمام هذا القدر؟ «صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[2].

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤٥٢).

إذًا: هذه الثّلاث نقاط:

١. لا العطيّة ولا المنع يدلّ على الرّضا.

٢. الغنيّ في الشّريعة له سلوك، والفقير في الشّريعة له سلوك؛ هذا مسلك شرعي وهذا مسلك شرعي.

٣. وكلا الاثنين لو تصرّف بالطّريقة المناسبة معها، ماذا تكون النّتيجة؟ «خيرا له».

معنى ذلك: أين الخطأ في سلوك قارون؟ وقع في خطأين؛ حيث أنّ الخطأ الأوّل سببه الخطأ الثّاني:

الخطأ الأوّل: لمّا قالوا له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحسِن كَمَآ أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ﴾، لمّا قالوا له: (هذا المال تصرّف به على ما يرضي الله)، هو ماذا فعل؟ جاء بالخطأ الثّاني.

الخطأ الثّاني: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[1]، **يعني**: من عنده، من قدرته، من فهمه، من ذكائه، من عمله، وليس رزقًا من عند الله! فإذا بدأ بهذا الخطأ؛ سيأتي بالخطأ الثّاني، **وهو**: أن لا يتقرّب بهذا المال إلى الله؛ لأنّه يشعر (بجهده! كيف أنا بجهدي أشتغل وأتعب اللّيالي وبعد ذلك آتي للفقير وأقول له: خذ؟!) فهو يظنّ أنّ المال ماله! وأنّ الأمر بيده!

انظري: هذه الأخطاء تأتي في النهاية بالمرض أنّه: (أنا أحسن منكم، أنا أعلم منكم، أنا أفضل منكم!) وهذه الكلمات لا تأتي إلّا من عند أحد لا يعرف الله،

---

(١) القصص: ٧٨.

ولا يعرف أنّ العطيّة إنّما هي من الله؛ المؤمن كامل الإيمان يُسلّم تمامًا أنّ كلّ الأسباب أصلًا من عند الله؛ ولذلك ربّنا قال في القرآن: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[١]، **يعني**: هل أنت من يزرع أم ربّ العالمين؟! ففي الحقيقة لا يوجد هناك سبب من الأسباب إلّا والله هو الّذي سببّه ونفع به، **يعني**: الأغنياء انتفعوا بالأسباب الّتي سببّها ربّنا، والفقراء حُبست عنهم الأسباب ابتلاء لهم.

وإلّا فانظري مثلًا: الّذي يصطاد في البحر ويكسب من وراء الصّيد، ماذا فعل؟ ركب البحر الّذي ربّنا سخّره، ركب السّفينة الّتي ربّنا علّمها لنوح، وركب البحر، واصطاد بصنّارة أو بغيرها؛ ربّنا علّمه إيّاها، والسّمك الّذي في البحر من عند ربّ العالمين، وقدرته على الصّيد، هل هي بذكائه؟ من عند الله، وهكذا ابدئي من عند هذا الصّيّاد وانتهي إلى عند تاجر العود؛ تاجر العود الآن هذه من التّجارات الفخمة الّتي يكون أصحابها أغنياء، تاجر العود ماذا فعل؟ شجرة العود، يكون فيها مرض، ويتمّ الطّرق عليها لتصير فيها ثغرات تتكوّن فيها رطوبة ونوع من البكتيريا يأكلانها حين يأتي هذا السّواد، فيتركونها ١٠ سنوات باقية على هذه الحال، وبعد ذلك يقطعونها، وينشرونها إلى أن يصلوا إلى هذا السّواد، فيصير تاجرًا! تاجر على ماذا؟! من أين أتى بالعود؟! هل أتى به من جيبه؟! من عند ربّ العالمين!

وفكّري أيضًا: في مسك الغزال! فكّري في أيّ شيء تريدينه كان فخمًا عاليًا أو كان بسيطًا؛ كلّها من أسباب سببّها الله، وأرشد العباد كيف يستخدمونها،

---

(١) الواقعة: ٦٣_٦٤.

فكون العبد يظنّ أنّ هذا بجهده؛ مشكلة كبيرة تؤدّي إلى أن ينسى حقّ الله العظيم.

التّعليق على الدّليل الثّاني والثّالث

دعنا نبدأ بالدّليل الجديد، ونتنبّه لعلاقته بإرادة العلوّ؛ لأنّ هناك مشكلة في الدّليل الجديد، **يعني:** ليس مثل الأوّل واضح أنّ هذه إرادة علوّ؛ وإنّما الدّليل الجديد بعيد قليلًا. اقرئي الآية والدّليلين مرّة واحدة:

قال الشّيخ محمّد بن عبد الوهاب، في كتابه الكبائر: (**باب ذكر إرادة العلو والفساد:** وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لا يُؤمنُ أحدكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ»[2] أخرجاه.

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالَ: «لاَ يُؤمنُ أحدكُمْ حتَّى يكونَ هواهُ تَبعاً لما جِئْتُ بهِ»[3].)

اقرئي الآية الأولى الّتي هي الدّليل الأوّل في "**باب إرادة العلوّ**":

(وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.)

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥).

الآية الّتي من سورة القصص، أتت على كلمة (العلو)، و (الفساد)، صريحة.

جاء بعدها الحديثان على خلافها تمامًا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجعَلُهَا﴾، لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، فجاءت كلمتا: (علوّ)، و (فساد)، صريحة، **لكن انظري:** إلى سياق الآية، صحيح أنّ كلمتا (العلو)، و (الفساد)، جاءتا صريحة، وجاءت بعد آية قارون، لكن الآية تقول لنا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجعَلُهَا﴾، لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، **معناها:** سيَأْتِيَانِ الحديثان يشرحان مَنِ العبد الّذي لا يريد ﴿عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؟ قارون نموذج على مَنْ؟ الّذي يريد العلّو والفساد، وأمّا الحديثان اللّذان سنسمعهما الآن ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

من الآية عرفنا أنّ الآيات السّابقة الّتي هي: قصّة قارون، وأوّل السّورة قصّة فرعون، كانتا دليلًا على الّذين يريدون علوًّا وفسادًا؛ الآن الحديث الأوّل يشرح لنا الّذي لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا. من هو الّذي لا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا؟ سنأخذ أربع كلمات من الحديث، ماذا يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ «لا يُؤمنُ أحدكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ»، سنبدأ بالكلمة الأولى:

الكلمة الأولى: «لا يُؤمنُ أحدكمِ»: ما هو المقصود؟ «لا يُؤمنُ أحدكمِ» إيمانًا كاملًا، وليس بأن يُنفى عنه الإيمان تمامًا؛ إنّما يُقصد بذلك إيمانًا كاملًا لأنّ المطلب الّذي سيأتي الآن سيكون مطلبًا عاليًا عظيمًا، ما يُنفَى

معه الإيمان، **يعني:** لا أقول بأنّه ليس مؤمنًا أبدًا؛ إنّما أقول عنه: عنده إيمان لكن إيمانه ناقص.

هكذا سنضع في الهامش: أنّ النّاس إمّا أن يكون لهم إيمان كامل، أو إيمان ناقص، أو ليس معهم إيمان، فالنّاس ثلاث مراتب، وبينهم مراتب كما بين السّماء والأرض، فالنّاس يتفاوتون في الإيمان. فأكمل النّاس إيمانًا هم الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، يعني: من هو أكمل الأمّة بعد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في الإيمان؟ أبو بكر -رضي الله عنه-، وهو أوّل من يدخل الجنّة بعد الأنبياء، يعني: يسبق حتّى بقيّة أصحاب الأنبياء، فهو أوّل من يدخل الجنّة بعدهم! وهكذا، فالنّاس في كمال الإيمان نفسه متفاوتون؛ ولذلك الجنّة يدخلها سبعون ألفًا بغير حساب، والرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- عدّ صفاتهم؛ فهؤلاء كُمَّل الأمّة وصلوا إلى ذلك من أعمالهم.

إذًا: هناك كُمَّلُ الإيمان، وهناك ناقصو الإيمان، وهناك الّذين نُفِيَ عنهم الإيمان، لكن الدّرجة نفسها، **يعني:** نفس نقص الإيمان درجات، درجات، ونفس كمال الإيمان درجات، درجات، وأمّا نفي الإيمان فهو درجة واحدة في أصله يبدأ يصير دركات، دركات؛ لأنّ هناك نفي الإيمان للكفر ونفي الإيمان للنّفاق، فالمنافق في الدّرك الأسفل من النّار، فهو في دركات أعظم في الأسفل.

إذًا: أيّ حديث تسمعين فيه: «لا يُؤمنُ أحدكم»، ماذا تقولين مباشرة؟ ما تفسيره؟ (إيمانًا كاملًا)، **إذًا:** الّذي سيأتي ويفعل الأفعال الّتي سنتّفق عليها في الحديث، **هذا سيكون إشارة إلى:** أنّ الّذي يفعل يكون إيمانه كاملًا، والّذي لا

يفعل يكون ناقصًا. هذه الكلمة الأولى تناقشنا فيها، فنحن قلنا بأنّنا سنأخذ ثلاث كلمات؛ «لا يُؤمنُ أحدكم»، **يعني**: لا يؤمن إيمانًا كاملًا.

تأتي الكلمة الثّانية: «حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ»، **دعنا نرى:** (أخوه)، **ونرى:** (نفسه)، ما هو المطلوب أوّلًا في علاقتك مع أخيك كعلاقتك مع نفسك؟ أنت تحبّ نفسك، ولابدّ أن تحب نفسك، لكن ليس هذا الحبّ الّذي تطبطب عليها فيه! وليس (أحبّي نفسك)! هذه الكلمة الّتي انتشرت هذه الأيّام (أحبّي نفسك! أحبّي نفسك!)! لا! لا! وإنّما هي الكلمة الشّرعيّة، الكلمة الطّبيعيّة، فأنت من الطّبيعي أن تحبّي نفسك؛ وحبّك لنفسك، **يعني:** تنجيتها من النّار، لأنّه حين أحبّ أولادي، ماذا أفعل؟ ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1]؛ **إذًا:** حين تقي نفسك وأهلك ﴿نَارًا﴾، فهذا يدلّ على أنّك تحبّين نفسك، **فهذا هو:** مقياس الحبّ للنّفس. ما هو مقياس الحبّ للنّفس؟ أنّ الإنسان يقي نفسه من النّار، فيحبّ لنفسه الخيرات؛ وهنا لو كان مؤمنًا ستنقسم الخيرات إلى قسمين:

القسم الأوّل: **خيرات شرعيّة مباشرة تصل به إلى رضا الله، يعني:** من الخير أن يُوَفَّقَ لقيام اللّيل، من الخير أن يصوم، من الخير أن يفعل ويفعل من الأعمال الصّالحة، فهذا خير.

القسم الثّاني: **ومن الخير أيضًا أن يكون عنده من الدّنيا شؤون تعينه على شأن الآخرة**، من الخير الّذي يحبّه لنفسه أن يحبّ أن يكون عنده مالًا، أن يكون عنده سعة في بيته، أن يكون عنده أولاد صالحون، ماذا يفعلون؟

---

(١) التحريم: ٦.

يعينونه ويصلون به إلى طاعة الله، وهذا الّذي كانوا يقولونه لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾[1]، فهذا الخير الّذي تحبّينه لنفسك من الطّبيعي جدًّا أن تحبّيه لنفسك.

ما مقياس أن تحبّي نفسك؟ فقط لأجل أن نصحّح المقياس، يعني: نحن وصلنا للخلط في الأفكار لدرجة أنّنا لا نعرف ماذا يعني أن نحبّ أنفسنا؟! لكن الشّريعة قاسته، وضبطته، وأنت تقيسين نفسك على الشّريعة- فما معنى أن تحبّي نفسك الحبّ الصّحيح الّذي لا تكونين فيه آثمة؟ أنّك تقين نفسك من النّار، فهذا هو الحبّ الصّحيح الّذي يحبّه الله منك بالإضافة للحبّ الطّبيعي. فماذا يعني حبّك لنفسك الطّبيعي؟ أنّك لا تريدين أن تعطشي، لا تريدين أن تجوعي، لا تريدين أن تتعبي، فهذا كلّه طبيعي! لكنّنا هنا لن نناقش الطّبيعي؛ وإنّما سنناقش الشّيء الّذي يكون مقصودًا وليس بالحاجات الطّبيعيّة، فمن الطّبيعي أنّك لا تحبّين أن يتسلّط عليك عدوّ، فهذا كلّه طبيعي ولا يحتاج إلى نقاش؛ بينما الّذي يحتاج إلى نقاش هو أنّك أصلًا تحبّين لنفسك محبّة صحيحة.

يعني: الحديث يُفهّمنا مسألتين:

يُفهّمنا المسألة الأولى: وأنّك لابدّ أن تحبّي لنفسك أمورًا، ثمّ بعد ذلك ما تحبّيه لنفسك انتقلي وأحبّيه لغيرك! نحن ليست لدينا مشكلة في أن نحبّ لغيرنا؛ وإنّما نحن عندنا مشكلة قبل ذلك! **وهي:** أنت تحبّين لنفسك ماذا

(١) القصص: ٧٧.

أصلًا لأجل أن تحبّيه لغيرك؟! فأنت قد تحبّين لنفسك -الله يحفظنا- الفسق والفجور وإلى آخره، فلا يُقال لك: أحبّيه لنفسك وأحبّيه لغيرك!

فالآن انظرن: لهذا المثال -لأجل أن تميّزوا جيّدًا ما المقصود- فمثلًا: يكون هذا مُبتلى بالدّخان -الله يحفظنا- أو غيره من المصائب الّتي تشبه هذه. الآن هذا ولده، الأب يحبّ أن يذهب ليشتري علبة من هذا، هل يحبّ أن يكون ولده مثله؟! لا! لا يحبّ له هذا! فهذا يكون قد حقّق شيئًا من الحديث، فالّذي مشاعره هكذا يكون إنسانًا طبيعيًّا، وحقّق شيئًا من الحديث.

هو الآن جاء عكس الحديث، يعني: هو الآن للأسف مبتلى بحبّ هذا البلاء -ولكن انظرن: سنجعله مثل الحديث بالضّبط- وهو يحبّ لنفسه النّجاة من التّدخين، فيحبّ لولده النّجاة من التّدخين. فهكذا يكون قد طابق الحديث حتّى لو كان عمليًّا عكس ذلك.

فإذن المسألة الثّانية: ماذا تحبّين لنفسك؟ مع أنّنا أحيانًا كثيرة نقول: (هل من المعقول أن نتناقش ماذا نحبّ لأنفسنا؟! أكيد نحبّ لأنفسنا كلّ الخير!)، لا! فإنّ المشكلة تكمن في مقياس الخير! فممكن أنت بنفسك قد لا تعلمين ما هو الخير الّذي تحبّينه لنفسك؟!

إذًا: هناك ضابط مهمّ جدًّا: «لا يُؤمنُ أحدكم»، إيمانًا كاملًا، «حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ».

لنأخذ الجزء الثّاني: «ما يُحبُّ لنفسهِ»، من ماذا؟ من الخيرات الشّرعيّة، **يعني:** الخيرات الّتي حكمها في الشّرع خيرات، سواء كان في شأن الدّنيا أو الآخرة.

«يُحبُّ لنفسهِ»، الخيرات الشّرعيّة، **أقصد بذلك:** الّتي تكون في حكم الشّريعة خيرًا، والّتي تسمّيها الشّريعة خيرًا؛ لأنّ الخير والشّرّ أصلًا صار النّاس في مرج فيه، مرجت أحلامهم حتّى الخير والشّرّ اختلط على النّاس!

فماذا سأحبّ لنفسي؟ سأحبّ الخير الشّرعي، **فمثلًا**:

- ✓ الخير الشّرعي أن أكون تقيّةً.
- ✓ الخير الشّرعي ألّا يدخل عليّ حرام في مالي فما أُنبت من سُحْت؛ فالنار أولى به.
- ✓ الخير الشّرعي أن أكون مقيمة للصّلاة.
- ✓ تالية لكتاب الله.
- ✓ وهكذا نترقّى، فالخير الشّرعي أن أكون حافظة لكتاب الله.

هذا هو الخير الشّرعي. وماذا عن سعة المال؟ وأيضًا سعة المال إذا كانت في سبيل الله، إذا كنت سأبتغي فيها الدّار الآخرة، **يعني:** سنأتي بالشّيء الطّبيعي الآن، فتحبّين له سعة المال، فتحبّين له الصّحّة، لكن أنت لا تنسي أنّ كلّ هذا دائر في الخير الشّرعي الّذي في النّهاية أين ستنفذينه؟ أين ستستعملينه؟ في قربى من الله، في رضا الله، على الأقلّ لن أستعمله في معصية الله.

إذًا معنى ذلك: أنّ المعنى الثّاني الآن الّذي يهمّنا في المناقشة أن نعرف ماذا نحبّ لأنفسنا؟ لابدّ أن نُراجع ماذا نحبّ لأنفسنا؟ فلا نحبّ لأنفسنا هوانا؛ وإنّما نحبّ لأنفسنا الخيرات. وهذا في الحقيقة من بدائع الفهم.

لأنّه انظري مباشرة: للدّليل الثّالث الّذي ذكره الشّيخ في الكتاب: («لاَ يُؤمنُ أحدكُمْ حتَّى يكونَ هواهُ تَبعاً لما جِئْتُ بهِ».)، يعني: كيف عرفنا أنّ حبّك لنفسك، معناه: أنّك تجعلين حبّك فيما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ أليس لدينا الآن ثلاث جمل؟ «لا يُؤمنُ أحدكم»، وقد انتهينا منها، وجئنا قلنا: حتَّى تُحبّي لأخيك ما تُحبّيه لنفسك، أنت ماذا تحبّين لنفسك؟ هيّا هاتي الحديث الثّالث، قوليه له: (أنت ماذا تحبّ لنفسك؟)، الّذي تحبّينه لنفسك هو ما يجعلك تبعًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فجاء الحديث الثّالث لبيان: أنّ الّذي أحبّه لنفسي هو الّذي يكون تبعًا لسنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تبعًا لدين الله؛ وهو من جهتين:

الجهة الأولى: من جهة التّقرّب الشّرعي: تحبّين لنفسك أن تكوني مصلّية، صائمة، ذاكرة، قائمة في اللّيل، محافظة على أوقات الصّلوات، متقرّبة لربّك بما عندك من سِعَة؛ هذا الّذي تحبّينه لنفسك، صائمًا، مقيمة لشريعة الله ما تتجاوزينها، تحبّين لنفسك أن تكوني تقيّة صبورةً، محسنةً، وفيّةً، فمن المفترض أن يكون هذا الّذي تحبّينه لنفسك.

الجهة الثّانية: إذا اتّفقنا على هذه، نفكّر بعد ذلك في أخينا ماذا نحبّ له؟

لكن الآن أكيد تبيّن لكنّ أين تكمن المشكلة؟ يعني: قبل أن أتكلّم عن أن أحبّ لأخي ما أحبّ لنفسي، لابدّ أن نتّفق: ماذا نحبّ نحن لأنفسنا؟ لأنّه الآن من كثرة ما وصلنا في الانفلات القيمي والفهمي صار النّاس من هوى النّفس يقولون لأنفسهم: (لا! أنا أحبّك يا نفسي! أحبّك!) وتقول لنفسها ناصحة: (أحبّي نفسك! أحبّي نفسك!)

(أحبّي نفسك!) يعني على هواها. وقد يأتي أحدهم يقول لي: (نحن ما نقصد كذا! وما نقصد كذا!) المفاهيم الأخرى ليست مشكلة، لكن الأصل أنّ هذه الكلمة ما خرجت إلّا على هذا الفَهْم! على فهم: (أنّك اتركيها على هواها تفعل ما تشاء!)

الآن من الّذي يحبّ نفسه حقًّا؟ الّذي يكون هواه تبعا لما جاء به النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، **يعني:** حبّك لنفسك = ضبطك لنفسك، **يعني:** ما ترضى عن نفسك إلّا إذا كانت موافقة لسنّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ فهذا المعنى من الضّروري أن يتغيّر أوّلًا قبل أن ندخل في أزمة أن نحبّ لإخواننا ما نحبّه لأنفسنا.

يأتينا الآن المعنى الثّالث: المعنى الثّالث سيدلّ على كمال الإيمان. هل حبّنا لأنفسنا الخيرات يدلّ على كمال الإيمان؟ ماذا يقول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟

«لاَ يُؤمنُ أحدكُمْ حتَّى يكونَ هواهُ تَبعًا لما جِئْتُ بهِ»؛ **إذًا:** من كمال الإيمان أن تحبّي لنفسك الطّاعات، البركات الّتي تأتي من عند الله؛ هذا من كمال الإيمان، وحتّى لو غلبك هواك تكرهين هذا لنفسك.

إذًا: من كمال الإيمان -هذه النّقطة الثّانية الآن- أنّني أحبّ لنفسي موافقة ما أتى به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ هذا الّذي أحبّه لنفسي، هذا الّذي أشتاق لأن أكونه، هذا الّذي أكون حريصة أن أصل إليه.

لو كان هكذا -من البداية- لو كان بهذه الصّورة حبّك لنفسك سنرتقي أكثر في الإيمان، وماذا نفعل؟ نحبّ لإخواننا ما نحبّ لأنفسنا. وسيتبيّن لنا -إن شاء الله- هنا كيف يصعب الأوّل وكيف يصعب الثّاني، **يعني**:

- أين صعوبة المسألة الأولى في أن تجعلي هواك تبعا لما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟
- وكيف هي الصّعوبة في الثّانية بأن نجعل حبّنا لإخواننا يبلغ درجة حبّنا لأنفسنا؟

أيّهما أصعب في نظركنّ؟ هل أنّني أحبّ لنفسي أن أكون على هوى ما أتى به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟ أم أنّني بعدما أعدّل نفسي أحبّ لأخي ما أحبّ لنفسي؟ الأولى أم الثّانية؟

الأصعب هي الأولى! يعني: أنت لتحبّي لنفسك الخيرات الشّرعيّة، وتصيري تبعًا لسنّة النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، ستجاهدين ليلك ونهارك؛ ومن الصّعوبة أن تنقلي نفسك هذه النّقلة، وأن يصير هواك دائمًا تبعا لما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ أمّا إذا مَرَّنْت نفسك، ووصلت إلى الخيرات الشّرعيّة، فلابدّ أنّك تكونين مررت أثناء هذا على غسل قلبك من الحسد، من

الغلّ، لابدّ أن تكوني عالجت نفسك هذه المعالجات فيسهل عليك أن تحبّي لأخيك ما تحبّينه لنفسك.

إلّا أنّه حين نأتي في مواقف معيّنة نقوم بإعادة الكلام على أنفسنا، يعني: في الأصل الصّعوبة تأتي من جهة جعل هوانا تبعًا لما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ هذه هي الصّعوبة! ولذا يظهر في مثل هذا الموقف أنّ الإنسان قد يكون حريصًا، تقيًّا، باذلًا جهده أن يستقيم، ثمّ تأتي مسألة كالعقبة في حياته ما كان ينتظرها تخالف هواه! **مثلًا**: يأتي حكم شرعي يخالف هواه، يعني نفترض: أنّها مع استقامتها تعرّضت لحاجتها إلى شراء بيت مثلًا، وكان لا يوجد طريق لهذا الشّراء إلّا الرّبا، فجاء الاختبار وبالنّسبة لها عقبة! وترى بأنّ الفرصة سانحة وأنّها ستضيّع فرصة عظيمة! وأنت قيسي على هذا كلّ الأمور الّتي تشبهها. **فالمطلوب الآن**: أن يكون هواها تبعًا لما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يأتي أحد يقول لها: (عندك فرصة عمل، لكن في العمل يوجد كذا، وكذا، وكذا، من المناهي الشّرعيّة) من البداية تكون قد بحثت على عمل وفي النّهاية لمّا وجدت العمل وجدته مليئًا بالمناهي الشّرعيّة، فجاء الاختبار لهواك! هل تفعل هذا أم تتركه وأنت واثق أنّ الرّزق بيد الله؟ وأنّه ما يُطلب ما عند الله بمعصية الله، وأنّ الرّزق مكتوب والعبد إمّا أن يسير في طريق الحلال أو في طريق الحرام فإنّه سيصل لنفس النّتيجة، الّذي كُتب له سيجده سواء سار في طريق الحلال أو الحرام.

معنى ذلك: أنّنا من الممكن أن نجد أنفسنا مستقيمين، وبعد ذلك نُفاجأ بالعقبة! ولذا قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا اقتَحَمَ العَقَبَةَ﴾[1]، فلن تسير كلّ الأمور سهلة؛ وإنّما لابدّ أن تأتي عقبة وتمتحني فيها، ومثل هذا كثير في حياة النّاس، وأشكال وألوان! فلأجل أن أصل إلى أنّني أقتحم العقبة أحتاج إلى مزيد من الجهاد؛ في هذا الجهاد يكون هناك إصلاح للقلب، إذا حصل إصلاح للقلب كما ينبغي، يُتوقّع أنّ هذا الإنسان يصلح لأن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، ولذا تجدين كُمّل الإيمان، وليس ناقصو الإيمان لأنّ ناقصي الإيمان أصلا ما استطاعوا أن ينتصروا على أنفسهم؛ لذلك لن يسهل عليهم أن يحبّوا لإخوانهم ما يحبّون لأنفسهم.

لكن انظري: لأحد مثل ابن عباس، حين يفهم آية في كتاب الله يتمنّى لو أنّ أهل الأرض كلّهم فهموها، يحبّ لإخوانه ما يحبّ لنفسه؛ ومثله الشّافعي، يقول: «وَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ يَتَعَلَّمُونَ هَذَا الْعِلْمَ»، وقد كان الشّافعي من رموز العلم في الإسلام، «وَدِدْتُ أَنَّ الْخَلْقَ يَتَعَلَّمُونَ هَذَا الْعِلْمَ وَلَا يُنْسَبُ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ»[2]، ليس المهمّ عنده نفسه، وليس المهمّ أن يعلو، وليس المهمّ أن يُقال: (الشّافعي، الشّافعي)؛ وإنّما المهمّ أن يتعلم النّاس. كيف وصل إلى هذه المسألة؟! أصلًا هو استطاع أن يكون هواه تبعا لما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فما بقي عليه إلّا قليل فقط يصلحه في نفسه ويجاهدها، حتّى تزول كلّ المشاعر الّتي يمكن أن تأتي من الحسد، أو من الغلّ، أو من الخوف على الرّزق، وإلى آخره، ويزيلها، لكن أهمّ شيء في هذا كلّه الّذي يصل بنا لأن نحبّ

---

(١) البلد: ١١.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء(١٣٦٧٠).

لأنفسنا الخيرات، ثمّ نحبّ لغيرنا الخيرات: الإيمان بالغيب، الإيمان بلقاء الله؛ لأنّ النّاس الّذين يتصارعون ويريدون أن يعلوا بعضهم على بعض، أكيد أنّ تفكيرهم محصور في الدّنيا! والدّنيا ابتلاؤها أنّها محدودة، ضيّقة. **يعني:** هذا المكان لن يصير فيه إلّا معلّمتين **مثلًا**، ففي هذا الفصل إلّا معلّمة واحدة، فهناك صراع ولابدّ أن يكون هناك أحد ينتصر. هذه الإدارة ليس فيها مديرين لابدّ أن يكون هناك مدير واحد ويتصارعان. لكن حين يكون الإنسان تفكيره فيما عند الله، فتكون رحابة المكان على قدر السّماء، يعني: تريدين أن تصيري أحسن عند الله؟ ستصيرين أحسن بدون أن تدفعيني أنا! وأنا أتمنّى لك أن تكوني أحسن، ولن ينقص هذا من مكاني حين تكونين أنت أحسن.

فالإيمان بالغيب والرّغبة فيما عند الله ليس مكانًا للمزاحمة، لا بالعكس! أنت حين ترغبين فيما عند الله، وتتمنّين له هو أيضًا أن يكون في منزلة عند الله، فأنت ستأخذين أجرًا، انظرن حين يتعلم النّاس هنا في الدّنيا حتّى لو كانت طبخة تعلّموها وأتقنوها، تقولين لها: (ما شاء الله كيف طبختها؟)، فتقول لك: (لا، لا، هذه براءة اختراع، هذه سرّ كذا وكذا!) المهمّ فإنّها لا تريدك أن تشاركيها في شيء! لكن حين تصلّين ركعتي الضّحى، وتنتهين منها، وتقولين لها: (قد حثّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على صلاة الضّحى، وقد اعتُبرت صلاة الضّحى كالصّدقة على كلّ سلامى في المؤمن)، فأنت لن ينقص منك شيء؛ وإنّما بالعكس لو قامت صلّت ستُكتب لك في ميزانك، فلن تكون صلاة الضّحى سرًّا تخبّئينه ولا تقولين لها عنه، وإنّما أنت فقط ستختبئين من أجل أن تكوني أشدّ إخلاصًا. لكن ماذا ستقولين لها حين تذهبين؟ تقولين لها:

(النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- حثّ على صلاة الضّحى، وكذا، وكذا،)، ولن يكون سرّا، بالعكس سيزكو هذا العلم أكثر عند إفشائه، وعند بيانه، ويأثم الإنسان عند كتمانه، لكن سرّ الطّبخة يتضارب النّاس عليه! ويخبّؤونه!

فلو صار هناك إيمان، وصار هناك يقين في الآخرة، وصارت الآخرة هي الأهمّ؛ فلن يكون هناك نزاع. لذلك من اليسير أن تحبّي لأخيك ما تحبّينه لنفسك. وحين يقوى الإيمان بالغيب سيقلّ حجم الدّنيا فلا نتضارب عليها، وأعلّمها حتّى من شؤون الدّنيا، وأقول وأنا مكتوب لي الأجر في الإحسان إليها، وفي البيان، فيسهل علينا الإرشاد في شأن الآخرة ويسهل علينا الإرشاد في شأن الدّنيا.

إذًا سنرجع مرّة أخرى: ما العلّة العليلة الّتي تمنع الإنسان من أن يحبّ لإخوانه ما يحبّ لنفسه؟ ضعف الإيمان بالغيب. لا نفكّر فيما عند الله، لو كان الإنسان يفكّر فيما عند الله؛ لكان شديد الحرص على نشر الحقّ، وعلى بيانه، وعلى النّظر إلى السّماء وهي رحبة وواسعة لا منافسة فيها تمنعك، يعني: لو صار لك مكان في الجنّة لن يمنعه هو من المكان؛ وإنّما بالعكس فأنت سترتفعين في الجنّات لو هو دخل الجنّة لأنّه سيكون في ميزانك؛ وهذا لو حصل في شان الآخرة وصار الإيمان مقوّى بالآخرة ستكون الدّنيا تافهة ولا تستحقّ أصلا أن نتنافس عليها ولا نتضارب عليها أو أحبسها عن أحد. ولا أشعر بأنّه في نفسي غلّ أو حسد أن يأخذ منها شيئا وكلّما خطرت هذه الخاطرة -ونحن بشر تخطر لنا هذه الخواطر- لنا؛ دفعناها بتحقيرنا للدّنيا، وبتقوانا، وبتذكير أنفسنا أنّ كلّ هذا الّذي نتضارب عليه غدًا سنحزن على

أنفسنا أنّنا اختلفنا على شيء لا يساوي! -والإنسان تمرّ عليه أشياء كثيرة مثل هذه!- يعني: تبقين تقاتلين وتقاتلين على شأن، وحين تنضجين قليلًا تسألين نفسك: (وعلى ماذا تقاتلنا؟! وعلى ماذا تخاصمنا؟! وعلى ماذا اختلفنا؟! فالّذي اختلفنا عليه لا يساوي شيئًا!).

لكن سنرجع نقول: إنّه لا يحصل هذا إلّا بقوّة الإيمان بالغيب، **إذًا معنى ذلك**: -نحن لازلنا الآن نتناقش في الحديث ولم ننتقل بعد إلى إرادة العلو. والظّاهر أنّنا المرّة القادمة نربط الحديثين بإرادة العلو- لكي نصل إلى ما ذُكر في الحديث أنّه: «لا يُؤمنُ أحدكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ»؛ علينا بقوّة الإيمان بالغيب، ولأجل أن نصل لقوّة الإيمان بالغيب، فقط إرشادات سريعة نقول فيها كيف نصل للإيمان بالغيب؟

الشيء الأول: أكيد أنّ الغيب مصدره الكتاب والسّنّة، فأوّل أمر: لابدّ أن نتّفق على تحديد مصدر الغيب، **وهو**: الكتاب والسّنّة، **معنى ذلك**: أنّنا نعتكف على الكتاب والسّنّة لأجل أن نعرف ما يغيب عنّا. أليس هو غيب؟ إذًا يغيب عنّا، ولو آمنّا به سننجح في اختبار الدّنيا. **فالأمر الأوّل**: لا نقطع صلتنا بالقرآن والسّنّة! لا نتوه ونحن لا نعرف ماذا يجب أن نعتقد في الغيب؟ لا نقرأ القرآن والسّنّة كأنّه كلام فقط يجري على ألستنا بدون أن نعتقد في القلب بما هو موجود من أخبار! **إذًا هذا هو الأمر الأوّل**: الاعتكاف، الانكباب، الاعتناء، المصاحبة للكتاب والسّنّة، على عقيدة أنّنا من الكتاب والسّنّة سنأخذ الغيب.

يأتي الأمر الثّاني: الحرص الشّديد على معرفة الله، وما وعد الله في الدّنيا والآخرة لأوليائه، وما أوعد لأعدائه، **يعني**: هناك وعود كثيرة لربّ العالمين في كتاب الله في الدّنيا وفي الآخرة، **مثلًا**: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[1]، ﴿كَفَىٰ﴾ أم ما كفي؟ ﴿كَفَىٰ﴾، لكن أنت حين تكونين في معركة مع الأعداء، تدخلين المعركة بماذا؟ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾، أم بقوّتك ومكرك وخصوماتك ومضارباتك؟! فكلٌّ على حسب إيمانه!

ها هو وعد: ﴿وَاللَّهُ أَعلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾، حتّى أنّك لا تعرفين عدوّك بالضّبط مَنْ مِنْ بين هؤلاء؟! وأحيانًا تجدين عداوة ولا تعرفين من هو غريمك؟! وأحيانًا تجدين غريمك ولا تعرفين كيف يمكر بك؟! وأحيانًا تعرفين كيف يمكر بك ولكن لا تصلين إلى أن تكفّيه عنك، فيقول الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾. هل ﴿كَفَىٰ﴾؟ أم ما كفى؟ ﴿كَفَىٰ﴾! لكن ﴿كَفَىٰ﴾ هذه لابدّ أن تصير عقيدة في القلب، وليس كلامًا على اللّسان! من أين تعرفينها؟ من كلام الله عزّ وجلّ.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]، كم في الكتاب من معرفة الله تُسبّب لك الهدوء؟ فلا تدخلين معارك، ولا تضاربين أحدًا، ما تحقدين، لا يحتاج فحتّى أعداؤك، الله كافيك إيّاهم. فكلّ هذا من رحمة الله بنا أنّه أخبرنا:

---

(١) النساء: ٤٥.

(٢) الأنفال: ١٧.

⇐ ماذا وعد أولياءه؟

⇐ ماذا أوعد أعداءه؟

فأنت حين تنكبّين على القرآن؛ أهمّ غيب تعرفينه:

✓ مَنْ هو ربّ العالمين؟

✓ ماذا وعدك حين تكونين وليّة من أوليائه؟

✓ وماذا أوعد الأعداء؟ الكافرين؟ الفاسقين؟ المنافقين؟ إلى آخره.

✓ وكيف تصيرين وليّة؟ كيف تصيرين من القوم الّذين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1]؟ وما هو الإيمان؟ وكيف أتّقي؟ كلّ هذا بالتّفصيل في الكتاب والسّنّة، ودائما حين نقول بالتّفصيل نشعر بأنّه: (لا! ليس بالتّفصيل!) لا! ولكن هجرنا للكتاب والسّنّة هو الّذي سبّب أنّنا لا نتصوّر أنّ كلّ هذا في الكتاب.

فالمقصد الآن: أن تنكبّي على الكتاب، وتعرفي من هو الله وماذا وعد أولياءه وماذا أوعد أعداءه.

تأتينا المسألة الثّالثة الآن:

⇐ فالأولى: كانت الانكباب على القرآن: ليس هناك حلّ لا يمينًا ولا شمالًا فالإيمان بالغيب ليس له طريق إلّا كتاب الله، وليس له طريق إلّا سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا تتركنه ضعيفًا ونصير

(١) يونس: ٦٢_٦٤.

دنيويّات! وطوال الوقت الاعتصارات في الدّنيا! لابدّ أن ننكبّ على كتاب الله، وسنّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

⇐ والثّانية: ماذا نتعلّم؟: من هو ربّنا؟ ماذا وعدنا؟ ماذا أوعد بالمقابل؟

ويأتي الأمر الثّالث: من هو نبيّنا؟ كيف كانت أفعاله؟ كيف كانت مواقفه؟ من هذا النّبيّ الكريم الّذي سأدخل القبر وسأُسأل عنه؟ من هذا النّبيّ الكريم الّذي سأقف معه -نسأل الله من فضله- شاهدةً على الأمم؟ من هو هذا النّبيّ الكريم؟ لأجل أن تؤمني بالغيب أنّه: (نعم، هذا النّبيّ الكريم جاء، وجاء معه الخير، وكلّ ما أتى به حقّ ويقين)، لأجل أن أقول لنفسي حين تأتيني الخواطر الفاسدة: (لا، لكن ربّنا قال: لا، نبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- قال: لا، قال كذا، وكذا، وكذا إذًا هذا باطل وهذا حقّ)، فالتّفريق بين الباطل والحقّ لا يأتي إلّا حين تتعلّمين، ونحن هاجرون للعلم ونتصوّر أنّه بعقولنا سنميّز الحقّ والباطل! بمعنى: كيف أفسّر هذه المشاعر الّتي تأتي في خاطري حين أرى أحدًا أحسن منّي؟ ماذا أقول؟ ماذا يقول لك الشّرع؟ ماذا يكون في قلبك؟ كلّ هذا يقوله لك القرآن. يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[1]، فحين تقرئين في تفسيرها **تفهمين**: أنّ الله جعل الأغنياء فتنة للفقراء، والفقراء فتنة للأغنياء، والأصحّاء فتنة للمرضى، والمرضى فتنة للأصحّاء، وهكذا؛ فالنّاس حولنا فتنة لنا، ماذا تعني فتنة؟ **تعني**: اختبار، هذا الّذي يخرج لك أيّا كان حاله، والّذي يكون ظاهره أنّه أحسن منك، لا تبقي تبحثي

(١) الفرقان: ٢٠.

له عن عيب لأجل أن تهدّئي نفسك! لا تبحثي فيه عن عيب حين تقول نفسك: (أصلا هو لا يعلم عن كذا، أصلا وضعه كذا!) فتنقّصين فيه لأجل أن تهدأ نفسك، لا، وإنّما قولي: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[1]، فتردّين نفسك عن التّفكير.

المقصد: تنكبّين على الكتاب والسّنّة، تتعلّمين عن الله كيف وعد أولياءه؟ وكيف أوعد أعداءه؟ تنظرين إلى سيرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بماذا أمر؟ عن ماذا نهى؟ ماذا كان ردّه؟ إلى أن تصلي إلى معرفة يقينيّة؛ بحيث أنّه حين تُسألين في القبر: من نبيّك؟ يكون الجواب: (محمّد صلّى الله عليه وسلّم)؛ وهذا الجواب الّذي في القبر ليس جواب الملقّنين الحافظين، ليس جوابًا في اختبار شفويّ، إنّما ما ينطق به إلّا الّذي يثبّته الله. وقد ورد في الحديث الصّحيح أنّ الرّجل الموفّق -نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن نكون كلّنا هذا الرّجل- الّذي يجيب: من ربّك؟ ما دينك؟ وما نبيّك؟ تسأله الملائكة سؤالًا رابعًا، تقول له: «وَمَا يُدْرِيكَ؟»، **يعني:** من أين لك؟ من أين ثبتّي؟ من أين لك هذه الإجابات؟ يجيب: «فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ»[2].

⇐ فهذه الإجابات ما تأتي من أنّ الغيب يكون في مكان ونحن في مكان.

⇐ لا يمكن أن تصلي إلى كمال الإيمان والإيمان بالغيب ضعيف.

---

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين (١٠٦).

⇐ لا يمكن أن تحبّي لنفسك ما يجب أن تحبّيه وأنت لا تعرفين ما الّذي يجب أن تحبّيه!

⇐ لا يمكن أن يكون هواك تبعًا لما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وأنت لا تعرفين ماذا جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم!

فهذا الجهل المركّب الّذي ما لنا فيه عذر؛ لأنّه لو كان هذا الكلام يُقال لأُناس جهلة لا يقرؤون ولا يكتبون، ولا يسمعون ولا يفقهون؛ ربّما كان لهم عذر، لكن أنتنّ تعرفن أنّه ما لنا حجّة أبدًا سواء كنّا نقرأ أو أمّيّين، حتّى الّذي لا يعرف يقرأ أو يكتب؛ كلّ شيء حوله يدلّه على طريق الله، المسموعات ما أكثرها! المقروآت ما أكثرها! المرشدون ما أكثرهم! فكلّ هذا يحمّلنا مسؤوليّة أن نُكَمِّل إيماننا.

فنحن خرجنا الآن من هذا النّقاش بشيء مهمّ: قبل أن نتناقش في إرادة العلوّ وغيره؛ لابدّ أن تكون غايتنا أن نصل إلى كمال الإيمان، وهذه الغاية كما اتّفقنا بالطّرق الثّلاثة الّتي هي:

✓ أن ننكب على الكتاب والسّنّة.

✓ أن نتعلّم عن الله، وأن نتعلّم عن رسول الله، وأن نتعلّم دين الله.

✓ وأن نلحّ على الله بالدّعاء أن يقوّي إيماننا.

نسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يجعلنا وذرّيّاتنا ممّن قوي إيمانهم، وممّن خُتِمَ لهم بالخيرات، اللّهمّ آمين، وممّن ثبت في قبره، اللّهمّ آمين.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللّقاء الثّالث والعشرين

٣٠ جمادى الآخر ١٤٤٠

تابع باب ذكر إرادة العلوّ والفساد

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن ينفعنا بهذه الاجتماعات وأن يجعلها في موازيننا، وأن نكون ممّن اجتمعوا فاجتمعت معهم الملائكة، ولمّا قاموا قيل لهم: قوموا مغفورًا لكم، اللّهمّ آمين.

لا زلنا في الكلام عن الكبائر، ولا زلنا نتكلّم عن الطّريق الصّحيح لأهل السّنّة والجماعة في سيرهم إلى ربّهم؛ فإنّهم لابدّ أن يجمعوا بين شأنين: بين الرّجاء والخوف، ولابدّ أن يجمعوا أيضًا بين شأنين: بين معرفة ما يحبّ الله ويرضى، وبين معرفة ما يسخط ويغضب منه ربّ العالمين، فنكون بهذا نتعلّم الخير لأجل وبقصد فعله، ونتعلّم الشّرّ بقصد اجتنابه؛ وهذه عقيدتنا في دراستنا للكبائر.

وأنا أؤكّد عليكم تأكيدًا واضحًا أنّه حال دراستنا للكبائر، لا نريد أن تتحوّل دراستنا للكبائر لوساوس، فهذه الوساوس تمنعنا من القيام بالعمل؛ لأنّ النّاس في دراستهم لما يحبّ الله ويرضى، وفي دراستهم لما يبغض الله، على طرفين ووسط؛ أمّا الوسط فيجمع في قلبه ما يحبّ الله ويرضى، وأن يحقّق

الإخلاص والمتابعة، **يعني**: حين يعرف ما يحبّ الله ويرضى، مثلا: يعرف أنّ الصّلاة قربة إلى الله، يعرف أنّ الصّيام قربة إلى الله، يقوم بهذا الفعل مخلصًا لله، قاصدًا وجه الله، متابعًا رسول الله في ذلك؛ فهؤلاء الأمر الوسط.

أو المتطرّفون طرفي الأمر، فيأتون إلى ما يحبّ ويرضى من الأفعال، ويبتدعون فيها، ويضيفون عليها؛ فهؤلاء يتطرّفون بطريقة. وهناك من يتطرّف بطريقة أخرى، ويقول لك: (الله لا يحتاج منّا العبادات ولا الطّاعات!) ومن ثمّ يترك العبادات والطّاعات على أنّ الله ليس محتاجًا! ولكن أنت المحتاج والله الغنيّ! ألم يأمرنا الله -عزَّ وجلَّ- في قوله تعالى في سورة الذّاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1]، أنت المحتاج إلى العبادات والطّاعات، فإنّ بين جنبيك روح ما تطمئنّ ولا تهدأ إلّا إذا أطاعت وعبدت؛ وإلّا فإنّها تبقى في حال من الخوف، وفي حال من الوحشة، الله بها عليم! فهذا في جهة الطّاعات، **يعني**: النّاس تطرّفوا في جهة الطّاعات من جهتين:

- من جهة أنّهم يبتدعون ويطيعون الله كما يريدون!
- ومن جهة من يقول لك: (الله لا يحتاج إلى عباداتنا!)

وكلا طرفا الأمور ذميم.

---

(١) الذاريات: ٥٦_٥٧.

أمّا أهل السّنّة والجماعة الوسط، فإنّهم يعبدون الله على ما شرع الله، مخلصين لله، طالبين من الله أن يقبل منهم طاعاتهم، فهذا الوسط بالنّسبة للطّاعة.

نأتي للمعصية أو لما يُبغض الله، ولما يكره الله، أو للكبائر مثلًا في حالنا هذه، فإنّ النّاس أيضًا لمّا تعلّموا هذه الأمور طرفان ووسط. أمّا الوسط فيتعلّمها ويفهمها ويسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يعينه على أن يتجنّبها ويراقب نفسه في المواقف؛ فإذا اكتشف نفسه في هذه الحالة داواها وعالجها.

إذًا المسألة الأولى: سيعرف ما يبغض الله، وسيبذل جهده في أن يدعو ربّه أن يجنّبه هذا، وسيراقب نفسه فإذا وجد نفسه دخل في هذا الباب، ما عنده إلّا أن يداوي نفسه مستعينًا بالله؛ وهذا الوسط.

نأتي للطرفين الذّميمين:

الطّرف المذموم الأوّل: هناك طرف كلّما تعلّم كبيرة من الكبائر قلب المسألة إلى وسواس! وبقي يقول: (أنا كذا! وأنا وصفي كذا! وأنا أكيد أنّ حالتي كذا عند ربّ العالمين!) ويبقى يذمّ نفسه حتّى يتمكّن منه الشّيطان ويُدخله في اليأس بسبب الوساوس! **فمثلا**: لو تعلّم الرّياء ككبيرة من الكبائر؛ يأتي عند كلّ عمل، ويقول: (لا! لن أقوم به، أخاف أن أكون مرائيًا، ولن أقوم به أخاف أن أكون مرائيًا) وهكذا يجرّه الشّيطان فيتحوّل العلم إلى وسواس.

الطّرف المذموم الثّاني: أو الطّرف الثّاني من الجهة الأخرى، يأتي أشخاص يسمعون كلّ هذا الكلام، ويتعلّمون عن الكبائر، وطوال الوقت يقولون

لأنفسهم: (لا، الحمد لله نحن لسنا بالحاسدين ولا بالحاقدين ولا عندنا إرادة علوّ ولا أيّ شيء!) **يعني:** ما بقي إلّا أن يضع عنوانا على قلبه إنّ قلبه هو السّليم فقط! فمن كثرة التّطرّف يكون لديه الشّعور بأنّه: (أنا سليم من كلّ مرض وبلاء وفتنة!) وكلا الطّرفان ذميم.

ماذا نفعل؟ أنت في الأصل لابدّ أن تعرفي أنّ الإنسان يُبتلى بنفسه، (مَا خلا جَسَد من حسد لَكِن اللَّئِيم يبديه والكريم يخفيه)[1]، فنحن أيضًا لا نقول فتّشي في نفسك حتّى تخرجي ما خفي من النّفس! الله يغفر لنا، لكن الّذي يكون مستورًا؛ الله يزيده سترًا ويخفيه عنّا، لكن الّذي يتبيّن لك في المواقف، يعني: تمرّين بمواقف فتكتشفين أنّك حاسدة، تكتشفين أنّك حاقدة، تكتشفين أنّك لا تنسين للنّاس أخطاؤهم، تكتشفين أنّك تريدين أن يقدّرك النّاس ويحترموك، تكتشفين أنّك تمدّين بيدك اليمنى الصّدقة، وتأتي بلسانك تمنّين على الخلق، تكتشفين هذا وتغمضين عينيك كأنّ شيئًا لم يكن! لا تغمضي عينيك!

هل تتحطّمين وتقولين: أنا ليس لي قيمة عند ربّ العالمين؟! ولا هذا الطّرف أيضا؛ إنّما داوي، وعالجي، واسألي الله -عزَّ وجلَّ- أن يحميك ويشفيك، وأن يرفعك، وأن يكفّر السّيّئات؛ كلّ هذا طمعًا في ربّ العالمين، على القاعدة المعروفة: أنّ أهل السّنّة والجماعة في كلّ شأن هم أمّة وسط، وليس لديهم تطرّف من أيّ جهة.

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها _ ابن تيمية

رجاءً في الله، نطمع في التّوبة، نطمع أن يقبل الله توبتنا، وخوفًا من الله نقبل عليه بالتّوبة؛ فلابدّ أن يكون هناك الرّجاء والخوف.

هذه كقاعدة عامّة، لأنّه دائما بعد دراستنا للكبائر تأتي أسئلة فيها فحوى الوساوس؛ فلابدّ من أن نضبط العلم الّذي يصل إلينا. فهذه المسألة الأولى الّتي أودّ أن أنبّه عليها.

المسألة الثّانية المهمّة جدّا: وهو أنّ أيّ كلام نتكلّمه في مسألة الكبائر عليه دليل، **بمعنى**: كلّ مرّة نكون في اللّقاء قد تناقشنا في كبيرة، لا تتكلّمي بالكبيرة والدّليل ليس ظاهرًا في ذهنك؛ لأنّ طرح مثل هذه الكبائر على النّاس، والكلام عنها بدون دليل، أمر يأتي بالفتنة للنّاس!

وأضرب لكنّ مثالًا واضحًا: فأنت الآن حين تقولين لأحد: -ونحن مرّ معنا في الدّراسة أنّه هناك فرح مذموم وفرح محمود، وأنّ الفرح المذموم يُعتبر كبيرة من كبائر الذّنوب- (أن تفرح فإنّها كبيرة من كبائر الذّنوب!) وانظري كيف تفتنينه في دينه؟! وكيف تجعلينه يقول: (إذا كان الدين يجعلني لا أفرح فأكيد يريدني أن أحزن! وإذا كان يريدني أن أحزن يعني لا يريدني أن أعيش!) وتحمّلي عند الله ما تصلين بالنّاس إليه من البعد عن دين الله!

ماذا أفعل؟! أريد أن أحذرهم! كوني ذات عقل، واتّزني وأنت تطرحين على النّاس، وخصوصًا لو أنت عرفت بأنّ هناك قواعد كثيرة سابقة ليست واضحة عند النّاس، فلماذا تقفزين إلى كبيرة الفرح؟! ابدئي بالإخلاص وما ضدّه الّذي هو الرّياء، ابدئي بالتّوحيد والّذي ضدّه الشّرك، وبعد ذلك تقدّمي

في الكلام، هذا لو أردت أن تتقدّمي وكان النّاس الّذين أمامك يصلحون أن تقولي لهم.

مقصدي من هذا الكلام: لا تأخذن مقتطفات من كلام يُدهشكنّ وتَفْتِنَّ النّاس به! فالنّتيجة الّتي ستكون أنّكنّ ستتحمّلن عند الله إثم المفتونين! -وإن شاء الله- أكون أنا بريئة من هذا الإثم -وإن شاء الله- أنتنّ تكنّ بريئات أيضًا، لكن أنا ما أخافه أنّه في مثل هذا الموقف بدلًا من أن نعلّم النّاس وننفعهم نتحوّل إلى أنّنا نضرّ الدّين! لكن أنتنّ قرأتنّ في كتاب الله مثلًا في كبيرة مثل كبيرة الفرح أنّ الله ذمّ بعض الفرح، وأنّه أثنى على بعض الفرح، وميّزنا بينهم، وعرفنا متى يكون الفرح مذمومًا، ومتى يكون ممدوحًا. **يعني:** من الممكن أن نكون بقينا أربعة أو خمسة لقاءات ونحن نتكلّم عن هذا الموضوع! أربع أو خمسة لقاءات ونحن نمهّد، ونزيد، ونعيد، ثمّ تقومين فجأة تريدين أن تأخذيها ثمرة وتطعميها غيرك، ستكون ثمرة غير ناضجة، ستفسدين عليهم دينهم!

المهمّ: أنا أحذّركنّ تحذيرًا واضحًا من هذه المسألة؛ لأنّها كثيرًا ما تحصل من النّاس الّذين يتحمّسون، لكنّه حماس في غير مكانه، حماس يفتن المؤمنين -الله يعيذنا من أيّ شيء نكون فيه فتنة- بل نحن ندعي كما ورد في كتاب الله: ﴿لَا تَجعَلنَا فِتنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]، وليس للّذين آمنوا! يعني: لهذه الدّرجة نحن لابدّ أن نضع أنفسنا في مكان بعيد عن فتنة النّاس، وحتّى في تفسير هذه الآية سؤال الله أن: ﴿لَا تَجعَلنَا فِتنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، بمعنى: لا

(١) الممتحنة: ٥.

تجعلنا في خذلان للدّين حتّى يفتتن الكافرون فلا يدخلون الدّين! يعني: نحن نكون سببًا في خذلاننا للدّين، وقلّة تمسّكنا في الدّين، تجعل الكافرين يتركون هذا الدّين الّذي أهله بأنفسهم مهملون فيه! فنحن لا نريد أن نكون ﴿فِتنَةَ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾! فكيف نكون فتنة للّذين آمنوا؟! نعوذ بالله من هذه الحال!

أرجو أن لا يكون منّا من يفعل ذلك. لكن تأتي أسئلة تشير إلى الوسوسة أو غيرها، فتحتاري:

- هل نكمل الكلام ونتعلّم أكثر؟ أم سيخرج النّاس في النّهاية موسوسين؟ هذا شأن.
- وشأن آخر: هناك تلميح بأنّ هناك مشاعر افتتان! فالله يبعدنا عن الافتتان.

والأمور كلّها واضحة -الحمد لله- بأدلّتها. وإن أردت إلّا أن تتكلّمي عن الأمر فابدئي من حيث الدّليل، يعني: اقرئي مع النّاس الأدلّة، اقرئي من القرآن السّياق؛ لأنّه كلّه كلام سهل وبسيط. منقولًا من كلام أهل العلم؛ فدعهم يقرؤون كلام أهل العلم.

الآن نعود إلى كبيرة العلوّ والفساد ونرى: إرادة العلوّ والفساد أين مكانها بالنّسبة لترتيب الكبائر؟ الّذي يظهر -والله أعلم- أنّ الشّيخ قصد ترتيب الكبائر، بمعنى: أنّ كلّ كبيرة ذُكرت أمامنا وأتت الثّانية بعدها كأنّها مركّبة على شيء سابق.

دعنا: نراجع سريعًا أسماء الكبائر الّتي مرّت علينا، في بداية الكتاب أشار إلى معرفتنا أصلا لكلمة كبيرة في الحديث، **يعني:** حين يقول لك أحدهم: (من أين لك بأنّ هناك كبيرة ويقابلها صغيرة؟)

تقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ إذا قال لك ربّنا: ﴿كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ **إذًا:** ما هو المطلوب منك؟ أنّك تهتمّين بالكبائر؛ لأنّ هناك شرط هنا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾، ما هو جواب الشّرط؟ ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

معنى ذلك: متى سيتحقّق لك هذا الشّرط أنّ الله يكفّر عنك السّيّئات؟ إذا اجتنبت الكبائر. هل تجتنبينها وأنت لا تعرفينها؟! لا، لابدّ أن تعرفيها.

فهذا الدّليل بيّن لنا أنّ هناك كبائر وصغائر، فالكبائر عرفناها بالدّليل من الآية والحديث، والصّغائر سيكونون في مقابلها، فإذا كان هناك كبائر فأكيد أنّ هناك صغائر.

الشّأن التالي أنّ الحديث جاءنا: «ألا أنبِئكُمْ بأكبَرِ الكَبائِر»، وهنا بدأ عدّ الكبائر. أكبر الكبائر على الإطلاق: الإشراك بالله، فهذا أكبر كبيرة.

الآن نحن نتصوّر أنّ الكبائر هي المعاصي، **نقول:** نعم، الكبائر هي المعاصي وأنت في داخل الإسلام، لكن أكبر الكبائر دخل فيها الإشراك الّذي هو بنفسه ذنب عظيم منفرد، فسمّى النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أكبر ما يرتكب الإنسان عمومًا مسلمًا كان أو كافرًا: الشّرك بالله. والسّبب في ذلك أنّ الله يُطعمك ويسقيك فبدلًا من أن تشكريه؛ تشكرين غيره! فكأنّك لمّا شكرت

غيره أشركت غيره في حقّ الله؛ وحقّ الله التّوحيد. يعني: حقّ الله علينا ألّا نُشرك غيره في شكره.

فكلّ العبادات إنّما هي شكر لله على النّعماء، فالعابد شاكر؛ ولذا قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[1]، العمل الصّالح شكرٌ؛ فأعظم ما يرتكب النّاس عمومًا من كبائر في حقّ الله: أن يشكروا غير الله، والحقّ ألّا يشكروا إلّا الله وحده، فصار هذا أكبر الكبائر.

إذًا: بدأ التّرتيب بأعظم ما يمكن أن يُرتكب.

نحن الآن نسأل: الكتاب مرتّب على أيّ شيء؟ فأوّل دليل في الكتاب وكذلك الدّليل الثّاني إنّما نبّهك إلى أنّ هناك كبائر، ومن ثمّ هناك صغائر. ما هو دورك؟ أنّك تجتنبين الكبائر. إذا اجتنبت الكبائر كُفّرت عنك الصّغائر.

وبعد ذلك تبيّن لك فقد بدأ يرتّب الآن، قال لك: أوّل شيء تجتنبينه لتستفيدي بعد ذلك من أنّه -سبحانه وتعالى- يكفّر عنك السّيّئات لأنّك اجتنبت الكبائر، ابدئي بأعظم كبيرة على الإطلاق، وهي: الشّرك بالله.

وبعد ذلك: «وعقُوقُ الوالدينِ»، فيم اشترك مع الشّرك؟ الشّكر. يعني: أعظم حقّ إنّما هو لله -عزّ وجلّ-، والواجب عليك أن تفرده وحده بالشّكر، فتعبده وحده. بعد حقّ الله في الشّكر يأتي حقّ الوالدين؛ فلذلك عقوق الوالدين من الكبائر الّتي تتبع الشّرك مباشرة؛ لأنّ المادّة هي: الشّكر، يعني:

---

(١) سبأ: ١٣.

كان الواجب أن يكون للوالدين الشّكر، فلمّا حصل العقوق كان ضدّ المطلوب.

الثّالثة الآن: «ألا أنبِئكُمْ بأكبَرِ الكَبائِر؛ قُلنَا بَلى يا رسُولَ الله قالَ: الإشراكُ بالله وعقُوقُ الوالدينِ، وكانَ متكئًا فَجلسَ فَقالَ: ألاَ وَقوْلُ الزورِ».

«ألاَ وَقوْلُ الزورِ»؛ **إذًا**: هذا من أكبر الكبائر. فالآن المادّة المشتركة بين الشّرك وعقوق الوالدين: (ترك الشّكر) الّذي من المفترض أن تضعيه في مكانه، **كأنّك تقولين**:

- ما هو العدل في معاملة الله؟ وضع الشّكر في مكانه.
- ما هو العدل في معاملة الوالدين؟ وضع البرّ في مكانه.

فنشكرهم بالبرّ، وربّ العالمين نشكره بتوحيده في العبادة.

ما حقّ النّاس الّذين هم حولك في المعاملة؟ حقّهم أنّك تكونين عادلةً فلا تقولي الزّور! فصارت الثّلاثة كلّها مثلما قال لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، فأصبح الشّرك ظلمًا، عقوق الوالدين ظلمًا؛ لأنّ الّذي يعقّ والديه أين يضع الإحسان الّذي في نفسه؟! يعطيه لأصحابه، لأحبابه، لزملائه، ويترك الوالدين ما يعطيهم حقّهم! هكذا الآن أصبح الشّرك ظلما؛ لأنّ:

- حقّ الله: التّوحيد، وأنت تأخذ حقّ الله في الشّكر وتعطيه لغير الله.

---

(١) لقمان: ١٣.

⇐ وحقّ الوالدين: الإحسان وهو الشّكر، فتأخذه وتعطيه لغيرهم، وتعامل والديك بالعقوق.

⇐ وحقّ النّاس: أن تعاملهم بالعدل، فتضع الكلام كلّ كلام في مكانه؛ فقول الزّور ظلم ويجلب أعظم الظّلم. **بمعنى**: لو أخذنا قول الزّور السّهل -فنحن قد شرحناه وتكلّمنا بالتّفصيل- لو أخذنا قول الزّور بأبسط مثال تعرفنه؛ لأنّ قول الزّور معناه واسع، **لكن نأخذ أبسط مثال:** يكون هناك حقّ لأناس في المحكمة ولا دليل عليه، فيقول القاضي لكلا الطّرفان: (اِيتِيَا بشهود). فيأتي هذا بشهود صدق، ويأتي هذا بشهود زور! فيقضي القاضي بما سمع، فيُقضى لأصحاب شهود الزّور. يكونون أقوى في الدّلالة. معنى ذلك: تخلّف العدل، وصار هناك ظلم بسبب شهادة الزّور! وهذا مثله كثير وهو أمر واسع.

معنى ذلك: أن هناك رابط بين الثّلاثة كبائر، **وهو**: (الظّلم) ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ومثله صار العقوق ومثله قول الزّور. فصارت هذه أعظم كبيرة. تصير الآن أعظم قيمة وأعظم حسنة هي: العدل. فالعدل مباشرة يكون أعظم قيمة، وأعظم معاملة يجب أن تقومي بها؛ ولذلك فإنّ الله -عزَّ وجلَّ- في سورة الشّورى، لمّا أمر النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- بمجموعة أوامر، كان منها: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[1]، **فهذا معناه:** أنّ العدل أمر عظيم عند ربّ العالمين، يبدأ من توحيده سبحانه وتعالى، إلى آخر ما تتصوّرين من كلّ الحقوق؛ ضعي كلّ شيء في مكانه.

---

(١) الشورى: ١٥.

كانت هذه أوّل الأمور الّتي ظهرت لنا: في الشّرك، وفي عقوق الوالدين، وفي قول الزّور. وأكّد كثيرًا النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على قول الزّور، حتّى أنّه كان يتكلّم مع أصحابه وهو -صلّى الله عليه وسلّم- في هيئة المتّكئ، ثمّ -صلّى الله عليه وسلّم- جلس من أجل بيان عِظم هذا الشّأن.

جاءنا بعد هذه الثّلاثة: كبائر القلب.

فخرجنا بنتيجة: أنّ هناك كبائر قلبيّة، وكبائر بدنيّة؛ والّذي يتحاشى الكبائر القلبيّة غالبًا ينجح في البعد عن الكبائر البدنيّة. والّذي ينتهي من الكبائر القلبيّة، أو يفهمها، ويعالج نفسه، يأتي إلى ربّ العالمين بقلب سليم.

"الكبائر القلبيّة" الّتي مرّت معنا:

١. **الكِبْر.**

٢. **العُجْب.**

٣. **الرّياء والسّمعة.**

٤. **الفرح.**

٥. **واليأس من روح الله.**

٦. **والأمن من مكر الله.**

٧. **وسوء الظّنّ.**

٨. إلى أن وصلنا إلى: **إرادة العلوّ.**

فكلّ هذه في نسق واحد دائرة حول شأن واحد: أنّ الإنسان نقص في قلبه تعظيم الله.

الآن حين نقرأ في إرادة العلوّ سيتبيّن لك أنّ الإنسان حين ينقص في قلبه تعظيم الله تخرج منه هذه الأمور، حين لا يعظّم الله، سيعظّم نفسه! **هذا الّذي ينبغي أن نفهمه:**

- أنّه إذا لم يحصل تعظيم الله يحصل في مقابله تعظيم النّفس!
- وإذا حصل تعظيم النّفس يأتي التّالي: يتكبّر الإنسان على الخلق أو يُعجب بنفسه.

ما هو الفرق بين الاثنين؟

- **التّكبّر**: لابدّ أن يكون هناك طرف ثانٍ لأجل أن تتكبّري عليه.
- **الإعجاب**: حتّى لو كنت في الصّحراء ممكن أن تُعجبي بنفسك! حتّى لو كنت وحدك ممكن أن تُعجبي بنفسك! بمعنى أنّه مرض قلبي ذاتي! يعني: لا يحتاج أحدًا معه. فجأة تشعرين بنفسك أنّك أحسن النّاس، أفضل النّاس، خير النّاس، لا يوجد مثلك في النّاس، ومثل هذا كثير!

انتهينا الآن من الكِبْر والعُجْب، وواضح فيها كيف أنّ الإنسان يعظّم نفسه! لماذا يصل الإنسان إلى أن يعظّم نفسه؟ (لنقص تعظيمه لربّه!) **يعني:** في قلبه لا يوجد تعظيم الله، لو كان في قلبه تعظيم لله سيعرف:

- ✓ أنّه لا يستطيع أن يتحرّك بحركة إلّا بأمر الله.
- ✓ ولا شيء يسكن إلّا بأمر الله.
- ✓ وأنّ كلّ قوّة عنده إنّما هي بحول الله وقوّته.

لكن ضعف تعظيم الله أدّى لهذه الأمراض. فهذا واضح في الكِبْر والعُجْب.

ثمّ كان بعد الكِبْر والعُجْب: الرّياء والسّمعة. الآن ما هي مشكلته هذا صاحب الرّياء والسّمعة؟ عظّم النّاس! فالأوّل في الكِبْر والعُجْب عظّم نفسه. وفي الرّياء والسّمعة عظّم النّاس أعظم من تعظيمه لله! فصار يلحظ رضا النّاس في طاعاته! يعني: بدلًا من أن يلحظ رضا الله صار يلحظ رضا النّاس. **إذًا:** ينقصه تعظيم الله. فإنّه لو كان يعظّم الله ما عظّم النّاس والتفت لنظرهم.

ثم كبيرة: الفرح. في الفرح عظّم الإنسان نفسه. لا تنسي قارون، فرح بماله. هو عظّم المال، صحيح، لكن مشكلته الأساسيّة أنّه عظّم نفسه؛ لأنّه قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[1]، وكان مشكلته الأساسيّة أنّه يرى أنّه إذا

(١) القصص: ٧٨.

وُجد المال استغنى عن الله فصار عظيمًا. ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[1]، فإذا وُجد المال استغنى عن الله، فرأى نفسه عظيمًا بسبب خارجي.

ما هو الفرق بينه وبين الكِبْر والعُجْب؟ الكِبْر والعُجْب يتداخلان مع الفرح، لكن الإنسان حين يجد نفسه حاصلًا على مال أو على غيره؛ يجد في نفسه حالة من الاستغناء عن الله! وهذه أعظم مصيبة على الخلق أن يشعروا أنّهم من الممكن أن يستغنوا عن ربّهم! ما عظّموا الله حقّ التّعظيم؛ عظّموا أنفسهم وعظّموا المال، عظّموا الأدوات، حتّى استغنوا عن ربّهم!

يأتينا بعد ذلك: اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وهما يجتمعان في نقطة واحدة تتّصل بعدم تعظيم الله.

فالّذي ييأس من روح الله عظّم ذنبه حتّى قال: (إنّ ربّنا لن يغفر له)! والّذي يأمن من مكر الله عظّم الرّجاء تعظيمًا باطلًا حتّى ظنّ أنّ ربّه لا يعذّبه! انظري: كيف أنّه يعظّم في نفسه الرّجاء، ويعظّم نفسه بقوله: (لا، ربّنا لن يعذّبني)! **فالنّتيجة**: أنّه ينقصه تعظيم الله؛ لأنّ من عرف: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2]؛ عرف: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[3]؛ فواضح جدًّا أنّه ينقص تعظيم الله، فإمّا أن يعظّم ذنبه، وإمّا أن يعظّم نفسه بأنّ ربّنا إلّا وسيغفر له!

بعد هذا سيأتينا: سوء الظّنّ بالله، هذا واضح جدًّا نقص تعظيم الله؛ لأنّه من يسيء الظّنّ في الله لابدّ أن يكون لا يعرف الله.

---

(١) العلق: ٧.

(٢) الحجر: ٤٩.

(٣) الحجر: ٥٠.

بيان أنّ إرادة العلوّ والفساد ما تأتي إلّا من نقص تعظيم الله

إلى أن وصلنا إلى كبيرة: إرادة العلوّ والفساد.

وهذه مرّت معنا مناقشتها. الآن فقط سنقرأ من بين أيديكم ما يزيد الأمر بيانًا بالنّسبة للنّصوص الّتي أتت؛ بعد هذه المراجعة لابدّ أن نتأكّد الآن أنّ إرادة العلوّ والفساد ما تأتي إلّا من نقص تعظيم الله.

اقرئي الآية، واقرئي التّفسير. اقرئي: (**وقصته مجملة كما ذكرها الشيخ السعدي**)[1]، هذه الآية الأولى كما هو واضح لَكُنَّ بأنّ الكلام عن قارون. سنقرأ تفسير الشّيخ لها:

(**وقصته مجملة كما ذكرها الشيخ السعدي في تفسيره حيث قال:** ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾. إلى آخر القصّة. يخبر تعالى عن حالة قارون وما (فعل) وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية).

الآن سنضع خطًّا تحت هذه الجملة، **وهي:** (ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية)، الآن قارون ماذا عظّم من البداية؟ المال. وبسبب المال حصلت حالة من البغي.

---

(١) مرجع "**كبيرة العلوّ والفساد**"، مدّت به الأستاذة حفظها الله طالبات العلم.

قال: (﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرًا، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ والعصبة: من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟!).

أكيد أنّها ستكون عظيمة؛ وهنا أين تكمن المشكلة: هو أتى عظّم المال. حين يحلّ تعظيم النّفس أو المال، مكان تعظيم الرّبّ -سبحانه وتعالى- لابدّ وأن تأتيه الكبائر، يعني: نحن الآن صار عندنا قضيّتان أساسيّتان: في الحديث المجمل، الّذي هو الشّرك وعقوق الوالدين وقول الزّور، ماهي القيمة الّتي كانت غائبة؟ العدل، كانت غائبة.

الآن في كلّ الّذي درسناه في الكبائر القلبيّة هناك قيمة غائبة، ما هي؟ تعظيم الله. حين يغيب تعظيم الله يحلّ بدلًا عنه تعظيم أشياء: (تعظيم النّفس، تعظيم المال، تعظيم القدرات، تعظيم النّاس...) بهذه الطّريقة.

ما الّذي جعل تعظيمه يقلّ لربّه، ويزيد تعظيمه لنفسه ولماله؟ أنّ الله ابتلاه بكثرة الأموال! فهنا يشرح لنا: (حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟!)، كيف سيكونون؟! فأنت فكّري في نفسك: لو كنت مكان قارون، ولو صار عندك مثل هذه الكنوز حتّى لو ربعها ولن نقول: نصفها! ماذا يحصل للإنسان؟! يعني: أنتنّ لا تنظرن لقارون على أنّه حالة شاذّة! لو -الله يحفظنا- ابتُليَ الإنسان بمثل ماله، بمثل حاله، وقلبه ضعيف في تعظيم الله؛ مباشرة سيحلّ تعظيم المال أو تعظيم النّفس مكان تعظيم الله!

واسألي الذّكيّ النّبيه الّذي إذا درس شيئًا فهمه، وإذا دخل امتحانًا أجاب، وإذا دخل في أيّ دراسة تفّوق، اسأليه: (كم هي استعانتك بالله؟ وكم هو ذلّك لله؟ كم شكرك لله؟ وكيف نظرك لمن لم يعطه الله؟)، إلّا الأتقياء! فقط الأتقياء هم الّذين ينجّيهم الله من مثل هذه الحالات، لكن كلّ واحد يدرس ويتعلّم ويكون فهيمًا، انظري إليه كيف يتعامل مع النّاس ولماذا؟! لأنّه يرى استغناءه عن ربّه. وهذا يُستثنى منه الأتقياء. ما صفة الأتقياء هنا؟ معظّمون لله، **بكلمة مختصرة:** لو علم الإنسان أنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله لوضع نفسه في المكان الصّحيح.

نحن يهمّنا الآن أن نتصوّر: ما الّذي ينقص لتظهر هذه الكبائر؟ لا نريد أن ننتظر أن تظهر لنا، **يعني:** نحن مَسْتورون لأنّه لا يوجد وَسَطٌ يسمح بظهور هذه الكبائر، لكن لا ندري غدًا ماذا يحدث؟! نسأل الله أن يستر علينا! ويحيينا مستورين ويمتنا مستورين.

المقصد: لابدّ أن نعرف بماذا سنغذّي قلوبنا لأجل أن ندفع عن أنفسنا أيّ مظهر من مظاهر هذه الكبائر -والله أعلم- فنحن ليس شرطًا أن يكون عندنا مال لنفتخر على الخلق ونفرح وما سيأتي بعد ذلك، لا! وإنّما اليوم أصبحت هناك أشياء غير المال، فاليوم الدّرجات العلميّة مفخرة لكثير من النّاس بغضّ النّظر إن كان عنده مال أم لم يكن عنده، المكانة الاجتماعية مفخرة.

قال: (﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المنكبين على محبتها.)

هذا أيضًا نضع تحته الآن خطًّا، ماذا قال له قومه؟ (﴿لَا تَفْرَحْ﴾)، طبعًا هم قالوا (ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾)، هنا ما هو المقصود بالفرح؟ المذموم. (لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها)؛ ماذا ستكون النّتيجة لو فرحت بها؟ (تلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المنكبين على محبتها.)، نحن من الطّبيعي أن نحبّ الدّنيا، لكن نبقى نعالج في أنفسنا حبّها، وليس بأن نأتي بالأسباب الّتي تزيد من حبّها والانكباب عليها! ولا نستفيق إلّا وقد التفت السّاق بالسّاق! ما يستفيق النّاس إلّا وقد انتهى الأمر! ولذلك قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[1]، يعني: بقيتم لاهين حتّى وصلتم إلى ذلك الحال! ولذا قد ورد في الحديث أنّه: «يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ المَالِ، وَطُولُ العُمُرِ»[2]، يعني: الموت يمرّ على غيرك، وأمام عينيك، وتظنّين بأنّه ما يمرّ عليك! وهذه المواقف كثيرًا ما تحصل، ففي الحرم في أحيان كثيرة تكونين تصلّين، أو يكون يوم جمعة، ثمّ يأتي الإسعاف ويأخذون أحدهم يكون قد مات! مات هذا وأنت في نفس صفّه! معناها: كنّا حاضرات، جالسات، وملك الموت قد مرّ! وبعد هذا الحدث والدّهشة والنّظر وكلّ شيء يأتي طول الأمل! فنسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يحسن خواتيمنا، ويغفر لنا ذنوبنا، ويرحم موتانا، ويرفع درجاتنا في علّيّين، اللّهمّ آمين.

---

(١) التكاثر: ١_٢.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٨٤).

قال: (﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات).

هنا المقياس الدّقيق جدًّا لصحّة السّلوك. ما هو المقياس؟ لابدّ أن تعرفي أن ما أعطيت إيّاه من مال، من صحّة، من ذكاء، من فهم؛ فأيّ عطيّة إنّما هي وسيلة للآخرة، فيقول الشّيخ: (قد حصل عندك من وسائل الآخرة)، هذا المال من وسائل الآخرة، (ما ليس عند غيرك)، طبعًا بالنّسبة لقارون، (من الأموال). ماذا تفعل حين يصير عندك وسيلة من وسائل الآخرة؟ (فابتغ بها ما عند الله)؛ **وأوّل الشّأن أنّك تفكّرين**: أنّك ما وُهِبْت إلّا اختبارًا، والاختبار لا يوجد فيه إلّا إجابتين فقط:

١. إمّا أن تبتغي ما عند الله من الدّار الآخرة.

٢. وإمّا أن تأخذه من أجل لذّات الدّنيا.

تأتي إحداهنّ تقول: (لكن أنا لا أعرف كيف أستخدم ما عندي للدّار الآخرة!)، نقول: ادعي الله، ارجي الله، اسألي الله، حتّى يفتح لك أبوابًا. لأنّه ليس شرطًا أن يكون مالًا، فقد تتصدّقين بها، وقد يكون المال أسهل الأمور! لكن أحيانًا يكون قوّة في بدنك، قوّة في لسانك، أو شهادة حاصلة عليها، علمًا تعلّمته، قبيلة تنتسبين إليها، منصبًا يكون عندك، ماذا تفعلين؟! **اعلمي**: أنّ هذه من وسائل الآخرة، لا تأتِ إلى أيّ شيء تميّزت به، وأُعْطِيت إيّاه ولا تنظرين إليه هذا النّظر. كلّ ما تميّزت به فهو وسيلة من وسائل الآخرة، ابتغي فيها القربة من الله. طبعًا بالنّسبة لحال قارون سيتصدّق نقدًا، لكن أنت لو

كان عندك كلمة طيّبة، ولك طريقة في الإقناع، ادخلي في الصّلح، أصلحي بين النّاس. لو كان بيتك واسعًا، ولك من الأهل والأحباب، اجمعي النّاس على الخير وأكرميهم، ولا تخافي على أغراضك، ولا تخافي على مزهريّاتك، لا تخافي عليها. فإنّك حين تموتين سيُستباح شأنها كلّها، وكلّ غرفة أنت قد أغلقتها، وحبستها، وقد خبّأت فيها، وتخافين عليها، ستُستباح! والله لا أحد سيفكّر! ستُستباح! فأنت من الآن أهلك، وقرابتك، وأرحامك، وسّعي صدرك كما اتّسعت البيوت -ولا نحتاج أن نقلّب المواجع- فقد كان النّاس بيوتهم ضيّقة وقلوبهم واسعة، اتّسعت الدّور وضاقت الصّدور! الله يغفر لنا!

على كلّ حال، ليس شرطًا أن نكون مثل قارون فأيّ شيء عندك، الله يوسّع عليك فيه، وَسّعي فيه؛ فلتصبح قاعدة -سبحان الملك العلاّم- قال لنا أنّهم قالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾، فانظري ماذا ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾ وابتغي فيه ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ﴾!

(ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات)، لأنّ النّاس من كثرة الدّنيويّة الّتي دخلت عليهم مع أنفاسهم! دخلت عليهم من كلّ قطر! من كلّ مكان! واستجلبوا ثقافة وقيم أهل الكفر وأهل الباطل وأهل النّفاق! صارت الدّنيا أهمّ شيء، وصار أوّل شيء ينظمّ لِلَهْوِه وما ينظمّ لعبادته! تجده سارحًا في لذّاته بعيدًا عن طاعة الله بسبب ما أعطاه الله! والله يعاملنا بحلمه وما أعظم الكفران تعصي الله بما أتاك الله!

فإنّ هذا النّموذج بالنّسبة لنا هو قارون، لكن كلّ أحد أعطاه الله؛ لابدّ أنّه يفكّر بنفسه، ولا يتأثّر بالمؤثّرات؛ إنّما حين تأتي الاختبارات والابتلاءات والامتحانات والفتن، يُنَجِّي الله الأتقياء المؤمنين.

قال: (﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك).

كلام جميل وواضح وليس عليه أيّ إشكال. هم قالوا له: نحن (لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعًا)، لا، فالشّريعة أصلًا لا تسمح لك بذلك. (بل أنفق لآخرتك)، اجعلها هي المقصد الأساس، (واستمتع بدنياك استمتاعًا)، بشرط أن: (لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك)، لكن أنت أصلًا ما قبلتك؟ أنت تسير إلى أين؟ الآخرة، فكأنّ الدّنيا هذه الدّابة الّتي لابدّ أن تُطعميها وتسقيها لتبقي سائرة، وتريحينها أحيانًا، وتجتهدي وتجدّي عليها في أحيانٍ، لكن أنت قبلتك الأساسيّة الآخرة. لابدّ أن يكون ذكر الآخرة أعظم من ذكر الدّنيا. وحين ننظر دائمًا في آخر أسابيعنا، كلّ آخر أسبوع نجد جرحًا **لابدّ أن نجدّد النّقاش فيه**: نجد أنفسنا في آخر الأسبوع خاصّة يوم السّبت، أناس لا يعملون أيّ شيء! على أساس أنّهم متعبون طوال الأسبوع. على أساس إنّها إجازة! **لكن**: حين نقابل ربّنا سنُسأل عن ساعات عمرنا فيما أفنيناه، لا يوجد هناك قانون يقول لك: الدّنيا إجازة، كلّ ساعة من ساعات عمرك لابدّ أن تكون أكثر جدارة في النّفع؛ بل قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾[1]، **يعني**:

(١) الشرح: ٧.

إذا حصل الفراغ انصب قدميك لطاعة الله، زيادة عن عملك؛ **فمن المفترض**: أن تكون سياسة المؤمن، أنّه حين يأتي الفراغ يزداد النشاط في الطّاعة، وليس كالدّنيويّين! فنحن لابدّ أن نفهم أنّ الدّنيويّة دخلت علينا من كلّ مكان! وهذا لا يعني أنّنا لا نريدكنّ أن ترتحن! لا بالعكس! لكن هذه هي الرّاحة الحقيقيّة، ثمّ إنّ النّعيم لا يُدرك بالنّعيم! والرّاحة لا تُدرك بالرّاحة! لابدّ من الاجتهاد، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

فأنت طيلة الأسبوع مع الزّحام ما أكملت وردك المفترض منك، تأخّرت عليه، اجعلي أيّام الفراغ تسديدًا للورد، أنت تعرفين بأنّ الأسبوع القادم ستلحق بك أمور وأمور، ماذا تفعلين؟ قدّمي وردك في القراءة قبل أن تلحقي. وقد كانوا يذكرون عن الشّيخ ابن عثيمين -رحمه الله- أنّه في العشرين يومًا الأولى من رمضان -الله يبلّغنا رمضان بالصّحّة والإيمان، اللّهمّ آمين- يكون موجودًا في بلده، ثمّ العشر الأخير يأتي إلى الحرم، فحين يأتي إلى الحرم -وكان هذا في أوّل الأمر- لمّا كان يأتي إلى الحرم كانت دروسه، وأسئلة النّاس تقضي وقتًا طويلًا منه، فكان يقدّم قراءة جزء كبير من ورده المقرّر بكذا وكذا، من العشرة أيّام في الأيّام الّتي تسبق؛ لأنّه يعرف بأنّه سينشغل. هو سينشغل بماذا؟! هل سينشغل بالدّنيا في العشرة أيّام؟! سينشغل بما ينفع المسلمين كلّهم، ومع ذلك ما قال لنفسه: (لا، أنا سأذهب إلى عبادة، فلا بأس) لكنّه من عبادة لعبادة وحرص واستفادة من أوقات الفراغ.

إذًا: ﴿ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾:

وممّا ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾ اليوم: الرّاحة العظيمة، الّتي لم تكن موجودة في الزّمن الماضي. وكلّ شيء يشتغل بدلًا عنك الآن. وأنت عندك أوقات كثيرة مهما كان!

وليس فقط هذا! فإنّه وممّا أتانا الله اليوم: أنّنا نكون في بيوتنا، ونسمع العلماء الأحياء منهم والأموات بأيسر ما يكون، بضغطة زرّ نحن نسمع! فأين العقول والقلوب المقبلة على العلم؟! وإنّه لا يحي الدّين والإيمان إلّا نشر العلم؛ فلابدّ أن ننتفع بما نبتغي فيما آتانا الله الدّار الآخرة.

وحتّى جهاز غسّالتك الّتي في البيت، ومكنستك الكهربائيّة الّتي في البيت، فإنّهم ممّا ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾؛ لأنّها توفّر عليك وقتًا طويلًا؛ ولأنّك لا تجتهدين وتذهب قوّتك! ولو كان عندك خادم فإنّ المسألة أعظم! فهذا من أعظم ممّا ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾.

ثمّ إنّه أين ما ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾ من قوّة وعقل وأدوات؟! أين في سبيل الله؟! وانظرن: فإنّه ليس شرطًا أن ما آتانا الله لابدّ أن يتعدّى، فلا تتصوّري أنّه لابدّ أن تخرجي تتصدّقي، أو أنّك لابدّ أن تكرمي؛ هذا موجود، لكن أيضًا آتانا أدوات كثيرة يسهل علينا الانتفاع بالقربة إليه؛ فلابدّ أن نفهم ونُشخّص ماذا آتانا الله. نسأل الله أن يبارك لنا فيما آتانا، ويجعله للآخرة وليس للدّنيا.

(واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك)، وأيضًا هذا المقياس تامّ الوضوح، فنحن لا نقول اقعدي في

ركن. لا! وإنّما استمتعي بدنياك، لكن استمتاعًا (لا يثلم دينك)، انظري: للنّاس قبل الصّلاة، يودّعون هاتفهم هذا، وبعد الصّلاة وقبل حتّى أن يسبّحوا؛ يستقبلون هاتفهم! هذا يثلم دينك! لأنّ **"سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر"** الّتي بعد الصّلاة تغفر ذنوبك ولو كانت مثل زبد البحر، ركّزي فيها! ركّزي فيها! **"أستغفر الله"** الثّلاثة، هذه استغفار صاحبه يرجو أن يغفر الله تقصيره في الصّلاة. لا تثلم دينك بما ﴿آتَاكَ اللَّهُ﴾.

هذا أبسط كلام لكن هناك الأعلى منه وهناك من يمدّ عينه إلى ما مُتّع به غيره! وهناك الأسوأ من ذلك، فيرى المحرّمات والممنوعات! فكلّ هذا يثلم دينك ويضرّ بآخرتك.

قال: (﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة.)

الآن نفهم: معنى إرادة الفساد، اقرؤوا اسم الكبيرة، ما هي؟ كبيرة إرادة العلوّ والفساد. **نناقش الآن**: الفساد: يقول الله -عزَّ وجلَّ- أنّهم قالوا له: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾، **يعني**: ولا تُرِده. فلابدّ أن لا يكن في قلبك إرادة الفساد. ماذا يكون الفساد الّذي في الأرض؟ التّكبّر والعمل بمعاصي الله. **يعني**: هو لن يخرج إلى الأرض ويحرقها ولن يخرج إلى النّاس ويقتلهم، بل هو بنفسه حين يتكبّر ويطغى ويعمل المعاصي وينشرها، يكون قد أفسد في

الأرض. (والاشتغال بالنعم عن المنعم)، من أعظم الفساد في الأرض! أن ينشغل النّاس بالنّعم ويتركون شكر المنعم.

(﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة)، هنا سنضع خطًّا؛ لأنّنا بعد ذلك سنجمع الكلام الّذي ذكره المفسّر في تفسير إرادة العلوّ والفساد.

قال: (فـ ﴿قَالَ﴾ قارون -رادا لنصيحتهم، كافرا بنعمة ربه-: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟)

كيف فهم عطيّة الله؟ وهذه أصل مشكلته؛ لأنّ الإنسان إذا عظّم ربّه، عرف تفسير أفعاله؛ وإذا نقص التّعظيم، فسّر أفعال الله على هواه!

الآن يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ هناك قولان: **القول الأوّل:** (أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب)، **بكلمة مختصرة:** بشطارتي! بذكائي! هذه الكلمة المختصرة الأولى: (أنّ هذه الأموال ليست كما تقولون إنّ الله أتاني إيّاها! إنّما هذه الأموال أنا اكتسبتها بتعبي وجهدي وذكائي بشطارتي!) إلى أيّ كلمة من هذه الكلمات.

القول الثّاني: هناك قول آخر أشدّ خطورة من الأوّل! **يعني:** بعض المفسّرين فسّره بهذا القول الثّاني ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ **معناها:** (على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك)، يرى نفسه أنّ الله -عزَّ وجلَّ-

يحبّه! وقد أخصّه بهذا لكونه راضٍ عنه! لكونه ذو مكانة! ما رأى نفسه أحسن من النّاس فقط؛ وإنّما رأى نفسه عند الله خير الخلق! ولذا جعل الدّليل على خيريّته عطيّة الله! فصار هذا المعنى أسوأ من المعنى الأوّل. **بمعنى:** أنّ عطيّة الله تدلّ على رضا الله فأكيد في الدّنيا ستكون هذه حالي! وأيضًا في الآخرة ستكون هذه حالي! لو كان هناك آخرة!

وهذا يشبه قصّة صاحب الجنّة في سورة الكهف؛ لأنّ صاحب الجنّة ماذا كان وضعه؟! ماذا كانت قضيّته؟! يرى أنّه هو الّذي اجتهد فأتى بهذه الحديقة، وظنّ أنّ له مكانة عند ربّه! فقال: (عطيّة الله في الدّنيا تدلّ على مكانتي!) ويظنّ أنّه ليس هناك حساب! لكن لو على افتراض أنّ هناك حسابًا؛ حين يُرَدُّ إلى ربّه ماذا ستكون حاله؟! ﴿لَأَجِدَنَّ خَيرًا مِّنهَا مُنقَلَبًا﴾[1]. على أساس ماذا ﴿خَيرًا مِّنهَا مُنقَلَبًا﴾؟ كيف تظنّ أنّه سيكون ﴿خَيرًا مِّنهَا مُنقَلَبًا﴾؟! على أساس أنّ عطيّة الدّنيا تدلّ على مكانته عند ربّه. وهذه من أفسد الاعتقادات! ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾، ربّي ماذا يقول: ﴿كَلَّا﴾ ليس هذا التّفسير الصّحيح؛ بل لأنّكم طمعتم في الدّنيا وتحبّونها: ف ﴿لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2]، فسّرتم أفعال الله بهذا التّفسير! وإلّا فإنّ عطيّة الله في الدّنيا لا تدلّ لا على رضا ولا على سخط. وقد قرّرنا هذا سابقًا.

---

(١) الكهف: ٣٦.

(٢) الفجر: ١٥_ ٢٠.

قال: (قال تعالى مبينًا أن عطاءه، ليس دليلًا على حسن حالة المعطي).

إذًا: (عطاءه، ليس دليلًا على حسن حالة المعطي)، وسيأتي الدّليل الآن:

قال: (﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مُضِيِّ عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟).

يعني: لو رأى وقرأ التّاريخ، سيجد أقوامًا أكثر قوّة وأكثر مالًا أهلكهم الله.

معنى ذلك: أنّه لو كان هناك قوم عندهم قوّة ومال؛ لا يدلّ هذا على أنّ عندهم مكانة عند ربّ العالمين؛ إنّما لمّا فعلوا الفعل الموجب للإهلاك أهلكهم الله.

قال: (﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولًا، وليس ذلك دافعًا عنهم من العذاب شيئًا؛ لأنّ ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمرًا على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحًا بطرًا قد أعجبته نفسه، وغرّه ما أوتيه من الأموال.)

إذًا: هم أهل الباطل يثبتون لأنفسهم حالة صحيحة، ويشهدون لأنفسهم بالنّجاة! والحقّ ما أخبر به الله أنّ العطاء ليس دليلًا على المكانة.

جزاكنّ الله خيرًا

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الرّابع والعشرين

٧ رجب ١٤٤٠

تابع باب ذكر إرادة العلوّ والفساد

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا زلنا بفضل الله وبمنّته نجتمع حول فهم هذا الموضوع المهمّ، والّذي هو جزء من ديننا العظيم، وهو طريق لتزكية النّفس وتطهيرها. الاجتماع حول معرفة ما يبغض الله من كبائر الذّنوب، هذا فيه مصالح عظيمة؛ اليوم فقط نسلّط الضّوء على مصلحة: تزكية النّفس.

نحن الأسبوع الماضي تناقشنا في المصالح في دراسة الكبائر، اليوم نضيف عليها مسألة **"تزكية النّفس"؛ وهذا هو هدف الشّريعة الرّئيس**: أنّ الإنسان يكون في هذه الدّنيا قد أتى وقلبه قد وُضِعت فيه البصيرة العظيمة، الّتي هي: الفطرة، الّتي يفرّق فيها بين الحقّ والباطل، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1]، ثمّ يُبتلى بطباع لنفسه، طباع في الإنسانية، وطباع تخصّه، وأمور تربّى عليها، يمكن أن يكون فيها من المشاكل ما فيها، فقد يصل بسبب هذه الطباع لأمراض في قلبه ويصل إلى اقتراف كبائر في دينه. فعلّمتنا هذه الشّريعة الكريمة كيف نزكّي أنفسنا ونرقّيها، ونفترق عن البهائم، الّتي لا غرض لها في الحياة إلّا أن تأكل وتشرب فقط، فارتفع الآدمي العابد لله عن البهائم

(١) البلد: ١٠.

بغرض تزكية نفسه وإصلاحها؛ وإنّ السّبعين ألفا الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب، يكونون قد وصلوا في تزكية أنفسهم إلى الحدّ الأعلى، حتّى أنّ قلوبهم قد امتلأت إيمانًا ويقينًا وتزكية، فلا يكون للنّار نصيب أبدًا في قلوبهم، فيدخلون الجنّة بغير حساب.

ويبقى قوم لم يصلحوا بَعْدُ لمجاورة الله في جنّات النّعيم، مسلمون، مؤمنون، لكن لم يصلحوا للمجاورة! ارتكبوا من الكبائر ما ارتكبوا، فتكون النّار مكانا لتطهيرهم من آثار هذه الكبائر من أجل أن يصلحوا لمجاورة ربّ العالمين، لكن قد يعاملهم الله برحمته، فيعفو عنهم، ويدخلهم جنّاته بدون أن يدخلوا إلى النّار.

بهذا نفهم: ما حكم الكبيرة عند أهل السّنّة والجماعة؟

أوّلًا: هي الآن توجب دخول النّار، لكن لا توجب الخلود في النّار.

ثانيًا: العبد يكون فيها تحت رحمة الله، قد لا يدخل أيضًا النّار، لكن ليس هذا العبد الّذي سيبادر في الدّخول إلى جنّات النّعيم؛ ما يصلح للمبادرة في الدّخول لجنّات النّعيم إلّا من بذل في تزكية نفسه حياته، فسيصل عند ربّه صالحًا لذلك، والّذي أقلّ وأقلّ والنّاس درجات كما بين السّماء والأرض. والله -عزَّ وجلَّ- في كتابه قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1]، فيصل العباد إلى أن يكونوا مستعدّين أن يبيعوا أنفسهم فقط ليرضى ربّ العالمين؛ ومع ذلك فإنّ ﴿اللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، لا يكلّفهم ما لا يستطيعون.

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

من المصالح المهمّة لدارسة الكبائر: أنّ السّالك إلى ربّه لابدّ أن يزكّي نفسه ويطهّرها لكي يصلح لمجاورة الله في جنّات النّعيم. فإذا ارتكب الإنسان الكبائر نقصت درجته، وكان مستحقًّا للنّار إلّا أن يعفو الله -عزَّ وجلَّ- عنه، فهو تحت رحمة الله.

وهذه عقيدة أهل السّنّة والجماعة المخالفة لعقيدة الخوارج؛ لأنّ الخوارج يعتقدون أنّ من مات على كبيرة إلّا ويدخل النّار؛ بل ويخلد فيها! **فتصوّري**: هذا الفرق الكبير بين أهل السّنّة والجماعة، وبين المخالفين الّذين هم الخوارج، لو تصوّرت المسألة واقعيًّا ستجدين أنّ هذا الفكر لا يمكن أن يكون فيه روح الإسلام؛ **لأنّ معنى ذلك**: أنّه لو مات أحدهم وهو مغتاب -أليست الغيبة كبيرة؟- عندهم في حكم الخوارج أنّه خالد مخلّد في النّار! لكن عند أهل السّنّة والجماعة هو تحت رحمة الله. نعم، يستحقّ النّار للتّطهير وليس للخلود، حتّى لو دخل النّار لا يخلد فيها، وهذا ليس تهوينا من شأن الكبيرة، فأصلا هل هو أمر سهل أن يدخل النّاس النّار؟! ليس سهلًا! **يعني**: إذا قلنا: تحت رحمة الله، لا يقوم العبد بالتّمادي! بل أهل الجنّة بأنفسهم يأتيهم حال قد يصابوا فيها بشيء من الحسرة الّتي يمسحها الله من قلوبهم، لكنّهم يصابون بشيء من الحسرة على منازل فاتتهم! كانوا بتسبيحة، أو بتكبيرة قد يرتفعون إليها! فكيف بالحال العكسي الّذي يرى النّاس يدخلون الجنّة وهم صحبة وهو محبوس عنها؟! فالمسألة ليست بالهيّنة، ولا مثلما يظنّ اليهود وغيرهم من أهل الأفكار الفاسدة، أنّهم يقضون في النّار أيّامًا معدودات! لا، ليس بهذه الصّورة! شيء عظيم، نسأل الله أن يُعيذنا،

ويحفظنا، ويطهّر قلوبنا، ونلقاه ونحن غاية في التزّكية لأنفسنا بتوفيقه - سبحانه وتعالى- وبعونه وحده لا شريك له.

فهذه فائدة تنفعنا، ونفهم من خلالها لماذا نحن حريصات على معرفة الكبائر، وأنّه لابدّ أن نفسّر تصرّفاتنا ونزكّي ونطهّر أنفسنا، ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

مرّ معنا الكلام حول هذه الكبيرة، الّتي هي: إرادة العلوّ. وكنّا في قصّة قارون، هذه ستكون بالنّسبة لنا المرّة الثّانية الّتي نعود فيها للقصّة، فنحن درسناها إجمالًا فيما سبق، والآن نقرأ في تفسير الآيات في قصّة قارون.

تابع قراءة في تفسير السّعدي في قصّة قارون

قرأنا أوّل الكلام في القصّة، والآن سنكمل في آخر قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[1]، في آخر سطر في تفسير هذه الآية: (فلم يزل قارون مستمرا على عناده وبغيه)[2]، بعد نصيحة قومه، قالوا له الجمل التّالية:

الأولى: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[3].

الثّانية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[4].

الثّالثة: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الرّابعة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) القصص: ٧٨.

(٢) مرجع **"كبيرة العلوّ والفساد"**، مدّت به الأستاذة حفظها الله طالبات العلم.

(٣) القصص: ٧٦.

(٤) القصص: ٧٧.

هذه أربع جمل نصحوه بها، ظاهرة في الآية. على هذه الجمل كلّها ردّ هو بردّ واحد: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ فكأنّه يقول: (ما لنصحكم مكان عندي!) لماذا؟! (لأنّني أنا صاحب الجهد والتّعب والمال؛ ومن ثمّ أفعل به ما أشاء)

وهذا إذا فسّرنا ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، بمعنى: بجهدي وتعبي! ونحن قرأنا أنّ هذه الجملة من الآية الكريمة لها تفسيران:

١. إمّا بجهدي وتعبي، **يعني:** يقول عن نفسه إنّه اجتهد وتعب.

٢. أو أنّ له شأن عند ربّ العالمين، فلا تنصحوه!

يعني: هو كأنّه يرى نفسه فوق النّصيحة! يعني: (أنا فاهم كيف أتصرّف، فوق النّصيحة! أنا أصلًا لي مكانة عند ربّي؛ ومن أجل ذلك ربّي أعطاني المال!) **وقد تكرّر هذا الاعتقاد ولابدّ أن نكرّره:** فإنّ عطيّة الدّنيا أو حبسها لا تعني رضا الله ولا سخط الله. **يعني:** لا السّعة في الدّنيا ولا الضّيق في الدّنيا يدلّ على رضا الله أو على سخط الله أبدًا، لا الموسّع عليه يكون هذا دليل على أنّ الله راضيًا عنه! ولا المضيّق عليه يكون هذا دليل على أنّ الله ساخط عليه. وليس بالعكس كذلك، فلا الموسّع عليه معناه أنّه أخذ نصيبه في الدّنيا وانتهى الأمر والمضيّق عليه هو الّذي عنده مكانة عند ربّه. لا! فإنّ هذه الأقدار والأنصبة إنّما هي مجرّد أوراق اختبار.

ولتعرفي أنت مكانك عند الله ماذا يكون؟ **انظري:**

- ✓ إلى أيّ شيء ينشرح صدرك؟

- ✓ وما هي همومك؟
- ✓ وماذا تريدين؟
- ✓ وما غاياتك؟
- ✓ وما مكان رضا ربّك عندك؟

ولذا فيما يُذكر عن مالك ابن دينار، أنّه كان يقول: (إِنَّ الْأَبْرَارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَإِنَّ الْفُجَّارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْفُجُورِ)، **بمعنى**: أنّ كلّ واحد له همومه؛ ولذلك كان ينصح بأنّه: (وَاللَّهُ يَرَى هُمُومُهُمْ فَانْظُرُوا هُمُومَكُمْ يَرْحَمُكُمُ اللَّهِ)[1]، فلا السّعة في الدّنيا ولا الضّيق هي الدّلالة على أيّ شيء؛ إنّما الدّلالة في ماذا يغلي قلبك؟ في ماذا يشتغل قلبك؟ ما هي الغايات؟ لأنّ الإنسان ممكن أن يكون لاهيًا بالدّنيا تمامًا، ثمّ يقوم يركع ركعتين، أو يقوم يصلّي الظّهر والعصر ويؤدّي كلّ الفرائض، لكن هذا القلب كلّه للدّنيا! نعم، هو أحسن حالًا طبعا من الّذي لا يصلّي، على الأقلّ هناك أمل أنّه يصدق في لحظة يقول فيها: (﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]، فتقع له الهداية؛ فمن المؤكد أنّه أحسن من الّذي لا يصلّي! لكن نحن نتكلّم عن الارتفاع الآن، ولا نتكلّم عن السّفول، فالّذي يصلّي أحسن من الّذي لا يصلّي، لكن الّذي يصلّي وهمّه الدّنيا ليس كالّذي يصلّي وهمّه الآخرة.

وكلّما زدت فتكون قبلة قلبك إلى الله، وإلى لقاء الله، عشت الدّنيا طيّبة سواء كانت سعة أو ضيّقًا؛ إذا كانت قبلتك الله ستكون الدّنيا طيّبة لأنّ الله

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء _ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ _ حديث رقم ٢٨٨٠

(٢) الفاتحة: ٦.

وعد بأنّه سواء كان ذكرًا أو أنثى وعاش يعمل صالحًا وهو مؤمن، بماذا وعد؟ قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1]، **يعني:** لابدّ أن يقع هذا؛ والحياة الطّيّبة هي الحياة الّتي يكون فيها الإنسان يرى الدّنيا ممرًّا ومعبرًا والآخرة المستقرّ، ويرى الدّنيا موطنًا للزّراعة والآخرة موطنًا للحصاد، وينشرح صدره لطلب الآخرة أكثر من انشراح صدره لطلب الدّنيا، مع أنّه لا مانع من طلب الدّنيا: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، لا يفكّر في الآخرة أبدًا! ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2]، طبعًا أحسن منهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[3].

فإذًا: هذا كلّه بعد النّصيحة، فهو تصوّر أنّه: (لا! لي مكانة عند ربّي! وأنّ ربّي أعطاني من أجل مكانتي!)

بعد هذه النّصيحة كلّها، يقول الشّيخ: (فلم يزل قارون مستمرًا على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه)، فبقي مستمرًّا رغم النّصح! (فرحًا بطرًا قد أعجبته نفسه، وغرّه ما أوتيه من الأموال.)، فهذا وصف نفسيّته، أنّه هو في حال فرح البطر! -وقد مرّ معنا- أنّ هذا هو الفرح المذموم، فرح البطر النّاتج من حبّ الدّنيا. (قد أعجبته نفسه، وغرّه ما أوتيه من الأموال.) سنرى بعد ذلك كيف يتصرّف؟

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) البقرة: ٢٠٠_٢٠١.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

قال الشّيخ السّعدي رحمه الله: (﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدّنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة).

الآن هذا التّصرّف تصرّف متوقّع، بعدما يكون يرى نفسه أهلًا لهذا المال، وأنّه أهلًا لهذه المكانة الدّنيويّة، سيرى أنّه أيضًا أهلًا لأن تبقى العيون معلّقة به وفي غاية الإعجاب به! وقد مرّ معنا سابقًا أوّل ما بدأنا في هذه الكبيرة أن تناقشنا في أنّ اللّذّة الأعلى من لذّة المال لذّة الفخر. **يعني:** لذّة الفخر والعلوّ على الخلق أعلى من لذّة المال! لأنّ الإنسان لو كان عنده مال، والمال هو غاية همّه، كان سيختبئ في بيته هو وأمواله. لكن لا، فلا أحد يكون لديه مال ويفعل ذلك! كلّ النّاس حين تصير عندهم أموال، ماذا يفعلون؟ إلّا ويُظهرون مالهم! إلّا النّادر الّذي يكون مبتلى ببخل شديد، لكن في الأصل النّاس بمجرد أن يحصلوا على أموال؛ لابدّ أن تظهر على سمتهم، وبعد ذلك يظهر على لباسهم، ويظهر على ذهبهم وعلى بيتهم ويدخلون في مسألة التّفاخر. وهذا في العادة.

فبذلك سيكون قارون أعلى النّماذج في مثل هذه الأحوال، ماذا فعل؟! لمّا وصل الفرح به ما وصل، (﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه)، الإنسان حين يكون عنده الدّنيا؛ يكون في أحوال

متعدّدة، لكن الله -عزَّ وجلَّ- وصف أنّه خرج ﴿فِي زِينَتِهِ﴾[1]، يعني: كما قال الشّيخ: (قد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه)، بمعنى: خرج وهو قاصد أن يلفت الأنظار إليه، وأن تكون معلّقة به، وأن يروه أعلى منهم. **وهنا تفهمين إرادة العلوّ**: فهو يريد أن يخرج بهذه الحال ليكون أعلى منهم؛ لأنّ هذا هو الّذي يُشخّص مرض إرادة العلوّ.

قال: (وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة)، يريد أن يصف لك كيف كانت الزّينة؟ ومفاتيح خزائن كنوزه -كما مرّ معنا- المفاتيح ستكون صغيرة ولن تكون كبيرة، مفاتيح الخزائن تثقل ﴿بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، يعني: كم عنده من الخزائن لدرجة أنّ مفاتيحها تكون ثقيلة! فأكيد عنده من الخزائن ما عنده، فمن كان هذا حاله حين يخرج بالزّينة؛ أكيد ستكون زينته كما ذكر الشّيخ: (هائلة، جمعت زينة الدّنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها)، فماذا فعل النّاس الآن أمامه؟ (فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ القلوب)، فهذا الّذي كان يريده، أن يخرج عليهم فيتعلّقوا به، يرونه هو الأعلى وهم أسفل منه؛ ولذلك من هذا سُمِّيَ المَلَأُ مَلَأً، لماذا ملأ؟ لأنّهم يملؤون العيون، **بمعنى**: أنّهم يخرجون بحالة تملأ عين النّاظر.

(واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين)، هذان القسمان هما اللّذان كنّا نتناقش فيها أوّلًا. أنّ النّاس حين يريدون قياس أنفسهم: ما مقدار مكانتهم عند ربّهم؟ فليروا ما حالهم أمام هذه الأمور؟ قال: (كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة)، يعني: أنت تريدين أن تعرفي

---

(١) القصص: ٧٩.

مكانتك عند ربّ العالمين؟ انظري: ما همّتك ورغبتك؟ انظري: بماذا يغلي قلبك؟ ما الّذي يشغلك؟ ما الّذي يلفت نظرك؟ ما الّذي يملأ عينك؟

سنسمع الآن أوّلًا: ماذا سمّاهم ربّ العالمين؟ **وبعد ذلك:** ماذا قال الفريق الأوّل؟ وماذا قال الفريق الثّاني؟

قال: (فـ﴿قَالَ الّذينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدّنيا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدّنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدّنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، لَمِنْ أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.)

الآن هؤلاء سمّاهم الله بإراداتهم وهذا شيء يلفت نظرك. **يعني:** ربّنا ما سمّاهم أيّ اسم؛ إنّما جعل الاسم الموصول: ﴿الَّذِينَ﴾، بَعْدَهُ الصّلة هي الّتي تُشهرهم، عندما يأتي اسم موصول؛ يأتي بعده الشّيء المشهور عنهم، كأنّها الصّفة الظّاهرة لهم، فبماذا سمّاهم؟ ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ **معنى ذلك:** سُمّوا بإراداتهم، وهذا شأن مهمّ جدًّا أنّك تعرفين أنّ اسمك عند الله على حسب إرادتك، على حسب ما قام في قلبك؛ ولذا النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قال لنا هذه الكلمة الّتي هي بمثابة الجوهر: «أَلا وَإِنَّ فِي الجَسدِ مُضغَةً: إِذَا

صلحتْ صلَحَ الجَسَدُ كُلهُ، وإذَا فَسَدَتْ فسدَ الجسدُ كلهُ»[1]، ولذا سُمّوا بإراداتهم الّتي في قلوبهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فأنت لا تهملي إراداتك وتظنّي أنّ أعمالك الظّاهرة تكفيك! نعم، أعمالك الظّاهرة في ميزانك، وتُضاعَف، وتزداد درجتها إذا زادت صحّة إرادتك.

المهمّ: فإنّ المواقف ستبيّن أنت مَنْ؟ وسأعيد عليكم كلام مالك بن دينار: (إِنَّ الْأَبْرَارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْبِرِّ وَإِنَّ الْفُجَّارَ تَغْلِي قُلُوبُهُمْ بِأَعْمَالِ الْفُجُورِ)، فهذه إرادات النّاس، هذه الّتي في داخل قلوب النّاس!

قال الشيخ: (أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها)، كأنّه يشرح لي ماذا يعني ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؟ (تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم)، لأنّك ستقولين لي: (لكن أنا أريد أن أعيش في الدّنيا.)، هناك فرق بين أنّك تريدين أن تعيشي في الدّنيا، وبين أن تكون منتهى رغباتك الدّنيا، فالفرق كبير فوق أن يوصف! أن تكوني تريدي أن تعيشي لأنّك أصلا لا يمكنك أن لا تعيشي! هل أنت تريدين أن تكون الدّنيا مزرعة والآخرة الحصاد؟ فلابدّ أن تعيشي في الدّنيا. ولابدّ أن تعيشيها بطريقة صحيحة، فإنّه حين يُقال لك: لا تجعلي الدّنيا منتهى إراداتك، ليس معناها لا تعيشي في الدّنيا! لا تجعلي الدّنيا منتهى الإرادات. **يعني**: كلّ الّذي تريدينه هذه الدّنيا! كلّ ما تدورين حوله هذه الدّنيا! وتصبح آمالك كلّها فيها بحيث أنّ الآخرة لا تمرّ على البال ولا بخاطرة إلّا بالغصب تمرّ على البال الآخرة والعمل لها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢).

قال: (وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها)، ماذا يعني المقصود؟ (في سواها) الضّمير عائد على ماذا؟ على الدّنيا. يعني: بيّن لنا بالضّبط أنّهم لا يريدون أن يعيشوا الدّنيا للآخرة؛ لا، وإنّما يريدون أن يعيشوا الدّنيا للدّنيا فقط!

ماذا ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؟ (﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدّنيا ومتاعها وزهرتها)، وبعد ذلك قرّروا لقارون صفة كانت هي الّتي يبحث عنها، فهو يريد هذه الكلمة منهم، يريد أن تمتلئ عيونهم منه، وألسنتهم تسبّح بحمده! فقالوا: (﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾)!

طريقة الشّيخ في بيان هذه المسألة، طريقة لطيفة جدًّا، قال: (وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا، دار أخرى)، يعني: سيكون ذو حظ عظيم، هذا المقياس صحيح، لكن متى سيكون صحيحًا هذا المقياس؟ إذا كانت فقط الدّنيا وإذا كان أصلًا في الحقيقة ليس هناك آخرة! فكأنّه يقول لك: إنّه لن يرى أنّ قارون ومثله ذوو حظّ عظيم إلّا ضعيف الإيمان بالآخرة، أو منتفي الإيمان بالآخرة، لكن الّذي يكون عنده قوّة إيمان بالآخرة لا يمكن أن يقرّر هذا التّقرير.

قال: (فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدّنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم، بحسب) ماذا؟ (بحسب همتهم، وإن همة) سينقد هذه الهمّة.

يقول: (وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، لَمِنْ أدنى الهمم وأسفلها وأدناها)، معنى ذلك: أنّ هذا سفول! فلا تسمحي لنفسك وأنت

تريدين تزكية نفسك، ونفسك تخرج عن وصف البهيميّة أليس هذا الكلام الّذي ابتدأنا به؟ أنّك من المفترض أن يكون عندك غاية واضحة أنّك ترفعين نفسك عن وصف البهيميّة الّتي تأكل وتشرب وتنام وتجري على اللّهو، تخرجين من ذلك وترقّين نفسك؛ بحيث أنّه يكون بممارسة مكارم الأخلاق وصفاء العلاقات يكون بالنّسبة لك غاية. وتدخل عليك السّعادة من المرّة الّتي تستطيعين أن تنتصري فيها على هوى نفسك، ومن المرّة الّتي تقدرين أن تُسْكِتِي فيها لسانك فما يغتاب، وتُسْكِتِي قلبك فما يسيء الظّنّ في الخلق، وتُسْكِتِي قدمك فلا تخطو إلى محرّم، تشعرين أنّك انتصرت؛ ومن ثمّ تدخل عليك السّعادة بأنّك قد علوت على الباطل الّذي تحرّكت به نفسك، لكن هِمَّةٌ ما هَمَّهَا إلّا أنّها تأكل وتشرب وتنام! وأنّه فقط يكون عندها كلّ شيء! فإنّ هذه لمن أدنى الهمم وأسفلها! (وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية)، وكلّما زاد حبّ الدّنيا كلّما زاد النّاس سفولًا! وصار غاية ما عندهم من الآمال أن يحصّلوا هذه الدّنيا.

وأنا أؤكّد عليكنّ: هذا الكلام ليس معناه أنّنا لن نعيش الدّنيا، فإنّ المكتوب لك من رزق حتّى اللّقمة تأكلينها؛ فهذه مكتوبة في السّماء لا يستطيع أحد أن ينزعها من فيك، لكن الكلام الآن ليس عمّا تأكلينه أو لا تأكلينه! أو تلبسينه أو ما تلبسينه! أو تتمتّعين به أو ما تتمتّعين! وإنّما الكلام عن (الإرادة)، أنت ماذا تريدين؟ هل ستستعملين هذا كلّه من أجل أن تزكّي نفسك؟ أم ستكون هذه هي غايتك؟!

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾! **يعني**: هذه منتهى إراداتهم، والإيمان بالقضاء والقدر في مثل هذا أحسن ما يكون، **ولذا اسمعن**: كيف يقول النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لابن عباس؟ «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»[1].

فالمقصد الآن: أنّه لن يكون هناك أحد سينزع منك شيئًا. فابقي مطمئنّة لهذا الجانب، وأظهري لربّك إرادة الآخرة، وليس هناك وراء السّفول في إرادة الدّنيا إلّا قطيعة الأرحام والتّحاسد والتّباغض فما وراءها إلّا هذا! وكلّ واحد يقول: (نفسي، نفسي!) لكن حين يكون الغرض ما عند الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[2]، إذا كان هذا هو الغرض؛ ستهون هذه الدّنيا وحتّى لو النّفس شحّت تسكتيها! تسكتين نفسك، وتؤدّبينها! فأنت لا تتصوّري أنّ نفسك ستقول لك: (سمعًا وطاعة)، مباشرة لا! وإنّما كلّما رغبت أن تسْمِي، هي شحّتك في السّموّ وتريد لك أن تتدنّي! وبعد ذلك أنت تقولين لنفسك: (لا لن أدنو وسأرتفع وأرتفع وأستجيب للنّداء وعندي ما أنفق، وسينفق الله عليّ وعندي ما أنفق، وسيُكتب لي عند ربّ العالمين وعندي الكلمة الطّيّبة أستطيع أن أقولها، وأحبس الكلمة السّيّئة الّتي عندي القدرة أن أقولها وأقول عشرة أضعافها، وما أقول إلّا الكلمة الطّيّبة سموًّا وإرادة لما عند الله).

---

(١) جامع الترمذي (٢٥٥٣).

(٢) الإنسان: ٢٠.

المقصد: أنّه لا يمكن أن تَصْلُحَ الحياة صلاحًا حقيقيًّا، وتطيب النّفس، وتخرج من حتّى الإشكالات الّتي تجلب التّعاسة والاكتئاب، إلّا حين تريدين ما عند الله، أمّا الدّنيا فإنّها ضيّقة على أصحابها يبقون يتنافسون ويتنافسون إلى أن يهلك بعضهم بعضًا! لكن انظري: إلى السّماء الرّحبة، وفكّري: فيما عند الله، واعلمي أنّ النّاس لا يتزاحمون عند باب الله! فكلّ واحد له مكانه الّذي يسلك به فيدخل على باب الله، وربّنا غفور رحيم، رؤوف بعباده، يفتح لهم من الأبواب، ويشرح لهم من الصّدور، ويشرح لهم صدورهم، وييسّر لهم من الأبواب ما يعجز الإنسان عن شكر ربّه أن فتح له مثل هذه الأبواب! لكن من أين؟ من الإرادات! من نقطة الإرادة بأنّك تظهرين لربّك أنّه: (صحيح أنا أريد ما عندك) وليس ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾!

وللمرّة الألف نكرّر: الّذي يريد الآخرة لابدّ أن يعيش في الدّنيا، لكن والله ما أطيب عيشه في الدّنيا، يبقى الإيمان هو الرّكيزة، وتمرّ عليه المصاعب، وتمرّ عليه السّعادة، يعني: تمرّ عليه الأمور حيث تكون سعة أو ضيقًا والإيمان يهوّنها كلّها، فلا يفرح فرح بطر حين تتّسع، ولا يجزع ويأس ويكتئب حين تضيق، فيصير الإيمان هو الّذي يثبّته، وهذا كلّه يمرّ على قاعدة الإيمان، فما أطيب هذه الحياة، وهذا وعد من الله؛ والله من أسمائه **المؤمن**، أي: المصدّق لعباده ما وعدهم. فلا يمكن أن تريدي الآخرة ولا يوسّع الله في قلبك لشأن الدّنيا، **المهمّ:** لا تريدي ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾! ونحن ما دخلت علينا العلمانيّة، ولا أكلت أفئدة النّاس، إلّا من باب إرادة الدّنيا، فصار كلّ شيء

جريًا للدّنيا! وصارت مقاييسهم كلّها الّتي يرضون بها والّتي يسخطون بها هي الدّنيا على أنفسهم وعلى غيرهم!

سنرى الآن: الطّرف الثّاني: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾:

قال: (﴿وَقَالَ الّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه. والآجل من الجنّة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الّذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَّى ذلك ويوفق له ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة اللّه، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب اللّه على الدنيا الفانية.)

الآن الطّرف الثّاني عُرِّفوا بأنّهم: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، **وهذا باختصار يفهّمك**: ما هو علاج إرادة الدّنيا؟ ﴿الْعِلْمَ﴾؛ و﴿الْعِلْمَ﴾ هذه الكلمة كذلك في داخلها إشكالات كثيرة! وأصبحت هذا اليوم مخطوفة للدّنيا! لازالت مخطوفة للدّنيا! والدّنيا أسرت كلمة ﴿الْعِلْمَ﴾! **لكن باختصار**:

- ✓ من عرف الله بأسمائه، وصفاته، وأفعاله.
- ✓ وعرف النّعيم الّذي ينتظره عند ربّ العالمين.

✓ وعرف ما يرضي ربّ العالمين.

فقد أصبح من ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾.

(﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها)، يعني: العلم فهّمهم حقائق الأشياء! فهّمهم أنّ:

⇐ كلّ هذه الأوراق النّقديّة الّتي تملكينها كلّها مجرّد ورقة اختبار! لن تأخذي منها إلّا ما كُتب.

⇐ كلّ هذا الّذي في خزانتك من ملابس لن تأخذي منها إلّا ما كُتب لك.

⇐ كلّ هذا الّذي في خزانة مطبخك من الأكل، أو في ثلاّجتك لن تأخذي منه إلّا ما كُتب.

⇐ عرفوا أنّ اللّذّات الدّنيويّة تنتهي في ساعتها!

وكم اشتاق النّاس للذّة دنيويّة فلمّا بلغوها ما ذاقوها! مع أنّهم وضعوها في فمهم! ولبسوها! لكنّها تذهب أسرع ممّا يذهب الظّلّ! يعني: الّذي يجري وراء الدّنيا كأنّه يجري وراء الظّلّ! الّذي يريد اللّذّة من الدّنيا كأنّه يجري وراء الظّلّ! كلّما ظنّ أنّه اقترب وكاد يمسكه؛ يعرف أنّه لا يمكنه أن يمسكه!

فعرفوا حقائق الأشياء؛ وهذا لا مانع أنّ الإنسان يتأخّر في معرفة الحقائق، لكن أهمّ شيء يبدأ بداية صحيحة، يعني: نحن لابدّ أن نفرّق بين

الشّابّ أو الشّابّة الّتي عمرها ٢٠ أو ٣٠ وبين من وصل إلى ٤٠ و٥٠؛ سنفرّق في معرفة الأشياء أكيد. وأكيد كلّما كبر الإنسان ونضج كلّما ازداد فهمًا لحقائق الأشياء، لكن لابدّ أن نُبيّن مبكّرين لربّنا: (أنّنا أصلا ما نريد الحياة الدّنيا، فاكشف لنا الحقائق، بصّرنا، ارزقنا البصيرة الّتي تجعلني شابًّا أنشأ في طاعة الله)؛ ولذا فإنّه مُدح هذا الشّابّ الّذي ينشأ في طاعة الله[١]، لماذا؟ لأنّه انكشفت له الحقائق من فضل الله، ومن رحمة الله، انكشفت له الحقائق وأصبحت عنده بصيرة، وأصبحت هذه اللّذّات الطّارئة ليست ذات بال! وهذا ليس معناه أنّ الدّنيا ليس لها طعم -وإنّما لابدّ أن أقول لكنّ في الهامش هذا الكلام- يذوق من الدّنيا طعمها، فأوّل ما يذهب، يعتبر، ويقول: (هنا الأشياء تذوقها حتّى تملّها، وهناك يؤتى لك بالمتشابه من الطّعام فلا تملّه! هناك الشّأن مختلف! هنا تسعى وتسعى حتّى تذوق، وهناك دانية عليك القطوف! هنا أنت تقوم لأجل أن تجلب لنفسك، وتعصر لأجل أن تشرب عصيرًا، وهناك ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[٢]! فالشّأن مختلف!)، فيذوق هنا، ويقول: (هناك الوعد).

فالمقصد وراء هذا كلّه: أنّ العلم لابدّ أن يدبّ إلى (الفؤاد) وليس إلى اللّسان والكلام، فيبدأ الإنسان يغيّر جهة قبلته الّتي ينظر إليها في آماله، وهذا لابدّ أن يبدأ من الشّباب حتّى يشيب الإنسان على هذا الشّأن، لابدّ أن يبدأ من الشّباب يحوّل قبلته حتّى يشيب على هذا الشّأن.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠). **متن الحديث**: ((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)).

(٢) محمد: ١٥.

هم (الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها)، (الذين)، من هم الّذين نظروا إلى ظاهرها؟ ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

ماذا قالوا لهم؟ (﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم)، الّذين أوتوا العلم ليس فقط معرفتهم تبقى عندهم؛ لأنّهم ممكن أن يقولوا: (دعهم لدنياهم)! لكن لا؛ وإنّما خرج من نفوسهم، وشعروا أنّه لابدّ أن يكشفوا الغمّة عن غيرهم، **وهذا أثر العلم، وهذا مقصد العلم**: أن تكشف الجهل عن نفسك، وبعد ذلك تبدأ تكشفه عن غيرك، فقالوا متوجعين: (﴿وَيْلَكُمْ﴾) للباقين (راثين لحالهم، منكرين لمقالهم). **كأنّهم يقولون:** (ما أفسد هذا التّفكير! لا تلقوا بأنفسكم في الويلات! لا تفكّروا بهذا المقياس فتلقوا أنفسكم في الويلات والمصائب!)

كيف أفكّر؟ قالوا لهم: (﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل)، وبعد ذلك: (والآجل). هل ترين كيف أنّه في السّطر الأوّل قال: (العاجل)، وفي السّطر الثّاني قال: (والآجل)، (﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الّذي تمنيتم).

إذًا: هناك ثواب للطّاعة والعبادة عاجل، وهناك ثواب آجل. هيّا نرى: الثّواب العاجل، قال: (من لذة العبادة) الّتي تأتي بعد زمن؛ ولأجل ذلك نقول: صحيح، سنفرّق بين الشّباب والتّقدم في العمر؛ لأنّه سيبقى الشّاب يوجّه قبلته إلى أن يصل إلى اللّذة، لكن هذه اللّذّة كذلك لا تبقى طوال الوقت! فقط تذوقها لأجل أن تستمرّ في الطّريق؛ ليست هدفًا إنّما هو طعم، الله -عزَّ وجلَّ- يلقيه في فؤادك حين تذوق حلاوة الإيمان، يلقيه في فؤادك لأجل أن

تبقي مستمرّة، وبعد ذلك ترجعين تجاهدين، وتجاهدين ثمّ يلقي في فؤادك شيئًا من حلاوة الإيمان، وبعد ذلك تجاهدين، وتجاهدين.

المقصد الآن: هناك لذّة للعبادة، هذا: (العاجل)؛ وهناك الأعظم من هذا، **وهو**: أنّك:

- ✓ تزدادين معرفة لله.
- ✓ وتزدادين ثقة به.
- ✓ وتزدادين شعورًا بإحسانه ولطفه.
- ✓ تزدادين شعورًا بقربه.
- ✓ تزدادين شعورًا أنّه معك.
- ✓ وأنّه وحده الّذي يلطف بك ويحفظك.
- ✓ وتزدادين شعورًا بأنّ كلّ شيء يزول عنك من الأشياء الدّنيويّة ويذهب حتّى أحبابك ينامون ويتركونك وأنت كلّك وجع في اللّيل، وما معك إلّا الله! فتزداد محبّتك لله، وإنابتك إليه والإقبال عليه.

وهذا من أعظم المعاني الّتي يتلذّذ بها الإنسان، **وهي**: حلاوة الإيمان. حلاوة للإيمان أنّه أوّل ما يأتيه المصاب، أو أوّل ما تأتيه القضيّة، أوّل ما يأتيه الشّأن؛ مباشرة هو يعرف على من يعتمد وإلى من يفزع ومن هو صمده ومن هو ركنه الشّديد، سواء كان في برّ، أو كان في بحر، أو كان في وسط النّاس، أو وحده، سواء كان الشّأن عظيمًا، أو كان قليلًا؛ فهو يعرف من يلجأ إليه ومن

هو معاذه وملاذه، وأوّل ما يقع عليه الشّأن يعرف من سيستر عليه ومن سيرزقه ومن سيخرجه ومن سيبيّن له ومن سيفهّمه ومن سيوسّع له هذا الضّيّق. فهو في راحة، فهذه اللّذّة الّتي هي: حلاوة الإيمان، ما يذوقها إلّا من عرف الله معرفة يقينيّة، وقرأ القرآن فما تجاوز الآيات الّتي تصف الله، وتصف أفعال الله، إلّا وقد دخلت إلى فؤاده، وهذا ليس للمرّة أو المرّتين ولا المائة ولا الألف! هذه تحتاج إلى الحياة! فمن أجل ذلك فقط أنت أظهري إرادتك للآخرة، وامشي في طريقك، والله -عزَّ وجلَّ- من وصفه أنّه كريم، فلا يمكن أن يبخل، لا يمكن أن تظنّي هذا، أن يبخل على من اشتاق لمعرفة الله، أن يبخل عليه بأن يعلّمه عن نفسه سبحانه وتعالى، بل تقرئين في كتابه، وتعيشين المواقف، وتقرئين الحياة المكتوبة بلغة لا يعرفها إلّا من عرف الله.

فالمقصد: أنّ هؤلاء يعيشون هذه اللّذّة العظيمة، الّتي هي: لذّة (محبته، الإنابة إليه، والإقبال عليه)، هذا في (العاجل)؛ وما أطيب هذا!

ثم في (الآجل)، يقول الشّيخ: (والآجل من الجنّة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين)، وهذا يُعجز عن وصفه! يُعجز عن وصف ما سيكون في (الآجل).

المهمّ: أنّ هذا (﴿خَيْرٌ﴾) من ماذا؟ (من هذا الّذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر). هذه حقيقة الأمر، هل كلّ النّاس يفهمون هذه الحقيقة؟ يقول الشّيخ: (ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى)، يعني: من الممكن أن يكون عارفًا، وهذا في أحيان كثيرة تأتين تقولين لأحد: (إنّ الّذي عند ربّنا أحسن من الدّنيا!)، يقول لك: (أنا أعرف)، ولذلك الشّيخ

يقول: ليس كل من عرف جعل الدّنيا أهمّ من الآخرة، قال: (ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَّى ذلك ويوفق له)، وهذه (يُلَقَّى)، كلمة فيها سرّ، يعني: كأنّك تمشين، وتمشين، وأنت مجتهدة، وتَلْقَيْها، لكن ما يلقاها في طريقه إلّا من؟ (﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة اللّه، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له)، ما أعظم هذا الكلام حقيقة! يعني: أنّه من الصّبر أن تري الدّنيا تسحبك من هنا وتسحبك من هنا، فأنت قومي في الدّنيا بما تستطيعين من أجل ربّ العالمين من أجل أنّها ما تأخذك، يعني: أنت الآن ستزورين أهلك **مثلًا** اليوم، هذه في ظاهرها أنّها للدّنيا، لكن في حقيقتها الشّرع جعلها بابًا للقربى؛ فهذه صلة الرّحم، وهذا برّ الوالدين، وهذا، وهذه كلّ الأبواب الّتي تعرفينها، فقط اجعلي إرادتك لوجه اللّه، وافعلي نفس الفعل؛ فإنّ القضية في الإرادات، الإرادات تُطَيِّب الحياة، وتجعل كلّ باب في الحياة طريقًا للوصول إلى اللّه؛ (فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب اللّه على الدنيا الفانية.)

قال: (فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازَّيَّنَتْت الدّنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد اللّه، أنزله اللّه أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر.)

هذه الحالة المتصوّرة، يعني: هذا النّموذج المتصوّر أن تكون هذه نهايته، لكن ليس شرطًا أنّ كلّ نموذج شخصيّ تحصل له هذه النّهاية، لكن في أصل الأمر أنّ من افتخر، وأراد العلوّ لابدّ أن يُعَاقَبَ بخلاف شأنه، بخلاف إرادته؛ ولذلك قال الشّيخ في قوله تعالى: (﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله)، فكلّ من أراد العلوّ؛ الله -عزَّ وجلَّ- خسف به، لكن ليس شرطًا أن يكون قد خسف به الدّار، يعني: هو أراد العلوّ، مثلًا نفترض: أنّه استعمل الدّين من أجل أنّه يريد العلوّ، فالله -عزَّ وجلَّ- يفضحه ويفضح مكائده وكذبه! استعمل المال أو استعمل المنصب لإرادة العلوّ فالله -عزَّ وجلَّ- يفضحه ويجعل سيرته على كلّ لسان. بعد أن كان يريد أن يعلو على الخلق يخسف الله به! فليس شرطًا الأرض، فإنّ الجزاء من جنس العمل.

(فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه)، كلّ هذا الّذي فرح به، خُسِفَ به! (﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾)، **وهذا هو الشّيء المهمّ**: هل رأيتنّ الّذين كانت أعينهم معلّقة به؟! لم يقدر أحد منهم أن يفعل له شيئًا! لا جماعته ولا عصبته ولا خدمه ولا جنوده (﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾)! وهو بنفسه ما استطاع أن ينتصر بنفسه! (أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر)، لا أحد جاء نصره، ولا هو انتصر بنفسه، وهو كان يظنّ أنّ هذا كلّه سينفعه! من يمكن له أن يعاقبه؟! من يمكن له أن يتعدى عليه؟! من يمكن له أن يفعل له أيّ شيء؟! لم يدري أنّه يأتي من أقدار الله ما لا يحسب له حسابًا، فتكون هذه الحال!

الآن دعنا نفكّر: في الّذين أرادوا، ستأتي الآيات تكلّمنا عن الّذين يريدون الدّنيا، ورأوا أنّه ذو حظّ عظيم، فقال الشّيخ:

(﴿وَأَصْبَحَ الّذينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلًا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول.)

وهذا من رحمة الله بهم أنّهم عاشوا إلى أن رأوه خُسِفَ به، فتغيّر فكرهم. ماذا يقول الله عزّ وجلّ؟ (﴿وَأَصْبَحَ الّذينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾) يُقصَد بهم من؟ ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، (الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾)، يعني: الآن عمليّا فهموا: أنّ الله يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدر، وبسط الرّزق وتضييقه ليس دليلًا على أنّه خير؛ ومن أجل ذلك (فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلًا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾).

وبعد ذلك أيضًا **تأمّلوا مسألة أخرى**: أنّهم لمّا أحبوا الحال الّذي هو عليه، عرفوا أنّ الّذي يحبّ الباطل، من المفترض أن يكون لديه نصيب من

العقوبة في الباطل، هم عرفوا أنّ الله منّ عليهم فلا ابتلاهم بنفس بلواه، ولا عاقبهم على تمنّي حاله؛ لأنّه قد ورد في الحديث: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ»[1]، وجاء في النّفر هؤلاء:

١- أنّ رجلًا أنفق ماله في سبيل الله «على هلكته»[2].

٢- ورجل تمنّى أن يكون عنده مال لأجل أن ينفقه في سبيل الله، فهما في الأجر سواء.

٣- ورجل كان عنده مال من الأموال الّتي آتاه الله فأنفقه في الفسق والفجور.

٤- ورجل آخر نظر إليه ورأى فسقه وفجوره فتمنّى أن يكون عنده مال ليفجر مثله، فهما في الوزر سواء.

فهؤلاء فطنوا لهذا ولذلك قالوا: (﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾)، يعني: مع قارون؛ لأنّهما في الوزر سواء، كيف تتمنّى الحال الباطلة؟! طبعًا قارون سيكون له النّصيب الأكبر، والّذي يفعل ليس كمثل الّذي يتمنّى، لكنّه سيشبهه في الإرادة، يعني: هم في الأجر سواء، وفي الوزر سواء.

---

(١) جامع التّرمذي (٢٣٥٣). متن الحديث: ((وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ))

(٢) أخرجه البخاري (٧٣). متن الحديث: ((سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا))

المقصد في أجر الإرادة وفي وزر الإرادة، لكن بعد أجر الإرادة هناك أجر العمل، وبعد وزر الإرادة هناك وزر العمل، **فحين تسمعين**: «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»، «فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ» فهما في الوزر سواء، إنما المقصود في أجر ووزر الإرادة.

سنرجع مرّة ثانية ونقول: فإنّ الإرادة هي المشكلة الحقيقة.

رأوا منّة الله (فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول) هذا من منّة الله - عزَّ وجلَّ- عليهم.

قال: (﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾).

قال الشّيخ السّعدي رحمه الله: (لما ذكر تعالى، قارون وما أوتيه من الدّنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الّتي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، الّتي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾ دارًا وقرارًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحقّ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض

والإفساد، لزم من ذلك، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.)

إذًا: هذا هو موطن الشّاهد: أنّه إذا كان حال قارون مذموم وهو قد أراد العلوّ، فإنّ حال من هو ضدّه ممدوح؛ ولذلك قال الله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، يعني: ما عند الله، نجعلها لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾، يقول الشّيخ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة)، يعني: المنفي هنا ليس فعل العلوّ، وفعل الفساد؛ وإنّما المنفي إرادتهم السّابقة، ما في قلبه إرادة لذلك، يقول: (ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله)، يعني: إذا انتفت عنهم الإرادة فمن باب أولى، مُنتفٍ عنهم أن يعملوا هذا العمل.

(والتكبر عليهم وعلى الحقّ) بل هؤلاء متى ما قيل لهم: (قال الله، قال رسوله، قال الصّحابة أولو العرفان)، قالوا: (سمعنا وأطعنا)، لا يتكبّرون على الحقّ، ولا يجادلون فيه، ولا يحاولون قلب الحقّ على هواهم؛ إنّما: (سمعنا وأطعنا).

يقول: (﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك، أن تكون إرادتهم) ما بها؟ (مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح)، **معنى ذلك**: أنّنا أمام شخصيّتين:

- شخصيّة تريد أن ترتفع على النّاس، وتريد أن تكون أعلى، وإليها يُنظَر.

وشخصيّة متواضعة، منكسرة، تريد رضا الله عزّ وجلّ.

قراءة في تفسير ابن كثير في قصّة قارون

سنأخذ كلام ابن كثير[1]، لأنّ كلام ابن كثير سينقل فيه شيئًا يمسّنا، وتفهمن كيف من الممكن أن تدخل إرادة العلوّ علينا؟! يعني: ليس شرطًا أن يكون عندنا الّذي عند قارون حتّى نريد العلوّ!

قال ابن كثير رحمه الله: (وَقَالَ ابْنُ جُرَيْج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ تَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا، ﴿وَلا فَسَادًا﴾: عَمَلًا بِالْمَعَاصِي.)

ما معنى العلوّ في كلام ابن جريج؟ التّعظّم والتّجبّر، يتعظّم: يكبّر نفسه. والفساد: العمل بالمعاصي. الآن سنأخذ كلام ابن جرير:

قال: ذكر بسنده (عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.)

الآن كلام عليّ -رضي الله عنه- واضح نقله **"ابن جرير"**، ماذا يقول؟ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ)، يريد أن يكون شراك نعله أعلى من شراك نعل صاحبه! (فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾)، يعني: الّذي يريد أن يكون شراك نعله أحسن من شراك نعل صاحبه، سيدخل في إرادة العلوّ.

---

(١) مرجع **"كبيرة العلوّ والفساد"**، مدّت به الأستاذة حفظها الله طالبات العلم.

قال: (وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ الْفَخْرَ وَالتَّطَاوُلَ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تواضَعُوا، حَتَّى لَا يفخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّجَمُّلِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً، أَفَمِنَ الْكِبَرِ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «لَا إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ».)

واقعيًّا الآن ستخرجين إلى مناسبة، وبصدد أن تلبسي:

⇐ وفي عقلك فلانة، أنّك أنت لمّا تخرجي ستصيرين أحسن منها؛ فإنّ هذا اسمه إرادة العلوّ.

⇐ ليس في عقلك أحد أبدًا، وأنت تريدين أن تتجمّلي لأنّك تحبّين الجمال؛ لا مانع.

فهناك حالتان فقط، طبعا أنتنّ تعرفن مَن الحالة الأطغى في الحال؟! لأنّه لو كان الشخص يحبّ الجمال كان المساكين أهل البيت رأوا الجمال! لكن ليس أهل البيت مَن يرون الجمال؛ وإنّما الّذين نريد أن نغيظهم هم الّذين يرون الجمال. فالله يغفر لنا! ما لنا إلّا الاستغفار.

سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللّقاء الخامس والعشرين

١٤ رجب ١٤٤٠

تابع باب ذكر إرادة العلوّ والفساد

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرا طيّبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلها ساعة مباركة علينا، وأن يكون هذا الاجتماع سببًا لأن يُقال لنا: (قوموا مغفورًا لكم) اللّهمّ آمين.

لا زلنا نناقش هذا الموضوع، **وهو**: موضوع **"الكبائر القلبيّة"**، وقد مرّ معنا في المرّات الماضية سبب هذه الدّراسة: لماذا يجب علينا أن ندرس **"الكبائر القلبيّة"**، ومن ثمّ الكبائر الّتي تتّصل بالجوارح؟ لأنّ من عرف الخير؛ عرفه ليكون من أهله. لكن لا يكون من أهله إلّا حين يجمع مع معرفة الخير، معرفة الشّرّ، ليحذر منه؛ وهذه قاعدة مشهورة، معروفة، عقليّة، مقبولة: أنّك لا تستطيعين أن تعرفي الطّريق المستقيم إلّا إذا عرفت حَدَّيْه: عرفت الطّرف الّذي فيه إفراط، والطّرف الّذي فيه التّفريط.

ويكفينا في هذا -خصوصًا في مسألة **"الكبائر القلبيّة"**- أن نتذكّر أنّ من ينجو **هو**: من يقبل على الله بقلب سليم؛ فسلامة القلب تكون بشأنين:

١. بتنقيته من الباطل.

٠٢. وبملئه بالحقّ.

فكان من بين الباطل الّذي يجب أن نطهّر قلوبنا منه، هذه الكبيرة الّتي نحن بصددها؛ وهذه الكبيرة قد أطلنا في نقاشها؛ بسبب كونها غاية في الخفاء، موجودة في النّفس والإنسان لا يشعر بأبعادها!

وقفنا المرّة الماضية في آخر اللّقاء، على قول ذكره ابن جرير، نقله عن عليّ بن أبي طالب، ذكره ابن كثير. واسم الكبيرة: **"إرادة العلوّ والفساد"**، فهي: **(إرادة العلوّ)** وليس نفس العلوّ؛ فمجرّد كونك تريدين العلوّ، هذه هي الجريمة القلبيّة! ودليلنا شأنان في السّياق، فهذه الكلمة من أين انتُزعت؟ انتُزعت من قصّة قارون في سورة القصص، فقال الله -عزَّ وجلَّ- واصفًا أهل الجنّة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾، لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1]، ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾، الّذي لا يريد؛ هذا ستكون له ﴿الْعَاقِبَةُ﴾، الّذي يريد العلوّ والفساد سيكون عاقبته مثل عاقبة قارون؛ فهذا هو المقصود.

فهنا الجريمة: إرادة العلوّ؛ ولذلك (الإرادة المستقرّة) في نفسك أنت تحاسبين عليها! فنحن دائمًا لأجل أن نطبّب قلوبنا، ونُيسّر أمورنا، وممكن أن نصل إلى أن نكذب على أنفسنا، نقول: (لا! فإنّ الّذي في قلبي ما أُحاسب عليه!) لا، ليس على وجه العموم! أصلا إذا كان كلّ الّذي في قلبك لا تحاسبين عليه؛ فكثير من الطّاعات القلبيّة ستذهب عنك! وهذا ليس صحيحًا. وعلى هذا لن يكون هناك معنى لحديث النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنَّ في الجَسدِ

(١) القصص: ٨٣.

مُضغَةً: إذَا صلحتْ صلَحَ الجَسَدُ كُلهُ»[1]، لن يكون هناك معنى لذلك! ولن يكون هناك معنى حتّى للآية: ﴿إِلَّا مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، الّذي يمرّ ولا يستقرّ مثل الخاطرة السّريعة؛ هذا هو الّذي لا تُحاسبين عليه، أمّا الّذي تكون فيه إرادة وصلت إلى حدّ العزم؛ فأنت تحاسبين عليه.

أنت حين تقرئين في قصّة الفتية أصحاب الجنّة، الّذين ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[3]، فهم لم يذهبوا بعد ولا فعلوا شيئًا! هم فقط أرادوا الفساد، وعزموا على ذلك، وأعدّوا له عدّته. والعدّة ما كانت شيئًا غير نفس عدّة الحصاد؛ فعدّة الفساد كانت هي نفس عدّة الحصاد، لكن العزيمة الّتي في نفوسهم جعلت عدّة الحصاد هي عدّة الفساد! ومن ثمّ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾، طاف على هذه الحديقة الّتي كانت هي نعمة الله عليهم، أصبحت كأنّ شيئًا لم يكن! والقصّة مشهورة ومعروفة.

لكن المهمّ: أن لا نقول لأنفسنا إنّ إرادة قلبك لا تحاسبين عليها. لا، فالإرادة الّتي في قلبك إذا وصلت إلى حدّ العزم والتّكرار؛ فإنّها تصل أن تكون ذنبًا بل كبيرة! ولذلك في الحديث: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ»[4]، نفران من الطّرف اليمين، ونفران من الطّرف اليسار. النّفران اللّذان من الطّرف اليمين، أحدهما عنده مال سلّطه «عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ»[5]؛ فهذا عنده مال

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢).

(٢) الشعراء: ٨٩.

(٣) القلم: ١٧-١٩.

(٤) أخرجه التّرمذي (٢٣٥٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧٣) متن الحديث: ((سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)).

حقيقيّ وسلّطه على الهلكة، يعني: أهلكه في الحقّ وفي سبيل الله. عنده مال فإذا ما خرج مثلًا يجد محتاجين فيُعطيهم، ويجد أبوابًا للخير فيفعلها من كلّ باب. الآن الثّاني ما عنده لكنّه يراه فقط، ويرى -مثلًا- سيّارة مكتوب عليها (أوقاف كذا لخدمة الحجاج) فيقع في قلبه إرادة حقيقيّة أنّه: (يا ليت يكون عندي مال أفعل ما فعل!) «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»! ما أوسع رحمة الله! فبالإرادة! فأنت لو قلت: (الإرادة ليس لها قيمة) فاتك هذا الشّأن العظيم! «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ»! **يقابلها**: الّذي على اليسار، هذا رجل عنده مال لكن يسلّط ماله لخدمة شهواته! والثّاني يرى في الجهاز، أو يرى عيانًا، يرى الّذي يراه بأيّ طريقة كانت، ثمّ إنّه كلّما رآه في شأن من شؤون الهوى والشّهوة، قال: (يا ليت يكون عندي مثله). «فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»!

فهذه الإرادة الّتي لابدّ من التّنبّه لها وملاحظتها، فلا تطلقني قلبك يسرح في أيّ مَرْتَعٍ، كان خصبًا فخير وبركة، أو يكون فيه من السّمّ ما فيه! لا! وإنّما لابدّ أن تختاري لقلبك المكان الّذي يرتع فيه، ويفكّر، ويتمنّى، ويرجو، من أجل ألّا يصل فيُريد ما يُسخط الله. لا تريدي ما يُسخط الله. فما زلنا لم نصل بعد إلى أن تفعلي ما يُسخط الله، لكن لا تريدي ما يُسخط الله.

ولابدّ أن تعرفي أنّ الّذي يريد أن يُسخط الله، يبتليه الله بأسباب تسهّل عليه أن يصل إلى السّخط! كما أنّ الله يبتلي من يريد رضاه بأسباب تُسهّل عليه الرّضا، وبعد ذلك يتمّ بيان حقيقة من يريد الرّضا، والآخر: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ

أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾[1]، ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[2]، يمدد له من الأسباب حتّى يسير في ذلك.

هذا الكلام يعيدنا لنقطة الأصل: وهو أنّ قلبك ليس مكانًا تسرحين به مكان ما تريدين. ويرعى أيّ شيء تجدينه. لا، ليس بهذه الطّريقة! لابدّ أن تجعليه يرعى في مرعى خصبٍ، كلّه إراداتُ خيرٍ وبركةٍ.

ولذلك هذا المعنى الموجود في النّصوص، لخصّه الإمام أحمد لابنه، فقال له: (انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير)[3]، فطوال الوقت أنت تنوين الخير، يعني:

- ✓ تريدينه.
- ✓ وترغبين فيه.
- ✓ لا تخرجين إلى مكان إلّا وترغبين أن تدخلي على أهله خيرًا، وتخرجي من عندهم بخير.
- ✓ لا تفتحي كتابًا إلّا وأنت تريدين أن تأخذي منه خيرًا، وأن تنفعي به نفسك ويكون فيه خير.
- ✓ لا تكلّمي أحدًا إلّا وأنت تريدين الخير.
- ✓ لا تخرجي لأحد إلّا وأنت تريدين الخير.

---

(١) الصف: ٥.

(٢) مريم: ٧٥.

(٣) المقدسي، الآداب الشّرعيّة والمنح المرعيّة.

✓ لا تفكّري في أحد إلا وأنت تريدين الخير.

فما أعظم الإرادات! ما أعظمها! والنّصوص كثيرة في مسألة الإرادة.

تابع قراءة في "تفسير ابن كثير" في قصّة قارون

سيتبيّن لنا هذا من آخر نصّ قرأناه في الأسبوع الماضي، والآن سنعيده لأجل أن نسمع مرّة أخرى الكلام، ونتصوّر: كيف أنّ هذه الإرادة خطيرة! لأنّ كلّ الكلام السّابق كان عن قارون، وعن حالته، وكأنّنا بعيدون عن إرادة العلوّ! سنقرأ مرّة أخرى كلام عليّ بن أبي طالب، ونتصوّر: هذا الخطر علينا، الّذي هو: **"إرادة العلوّ"**.

قال ابن كثير، رحمه الله: (وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَشْعَثَ السَّمَّانِ، عَنْ أَبَى سَلَّامٍ الْأَعْرَجِ، عَنْ عَلِيٍّ) رضي الله عنه، (قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ، فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.)

ما معنى كلام عليّ بن أبي طالب؟ واضح أنّه من إرادة العلوّ أن تأتي فتريدي، فيُعجبك أن يكون شراك نعلك، يعني: حتّى أنّه ليس الأعلى من نعلك؛ وإنّما شراكه الّذي من الأسفل! «أَنْ يَكُونَ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ»، بمعنى: حين ترين، أو تقصدين أن يكون نعلك خيرًا من نعل صاحبك؛ تدخلين في **"إرادة العلوّ"**! وهذا تفهمينه جيّدًا حين يأتي في النّصّ الّذي بعده:

«لا يُؤمنُ أحدكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسهِ»[1]، لأنّ الّذي يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، ماذا سيكون أثر ذلك؟

طالبات العلم: التّواضع.

الأستاذة: لا! ليس التّواضع هنا! وإنّما هنا مسألة أخرى زائدة على التّواضع، يعني: أنت -مثلًا- متواضعة مع كلّ النّاس ليس لديك أيّ مشكلة، لكن هناك "**س**"، من النّاس تحبّين أن تكوني أحسن منه! "**س**"، هذا يمكن أن يكون (أختًا، أخًا، صاحبًا، جارًا)، مهما يكون، أو مهما تكون، لكن فقط هذا بالذّات تريدين أن تصيري أحسن منه! فأنت لا تفكّرين في كلّ النّاس؛ وإنّما ما أطيبك مع كلّ النّاس، لكن يكفي أنّ واحدًا فقط يكون هو مشكلتنا! ثمّ إنّ هذا الواحد هو الّذي نريد أن نكون أحسن منه، فكلّ مرّة نشتري، وكلّ مرّة نتجمّل يكون في بالنا أنّنا نحن نريد أحسن منه! **ولذلك انظرن**: إلى كلام عليّ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْجِبُهُ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْوَدَ مِنْ شِرَاكِ صَاحِبِهِ)، (صَاحِبِهِ)، يعني: اتركي عنك الدّائرة الكبيرة، واذهبي ابحثي في الدّائرة الصّغيرة النّاس الّذين يصحبونك من حولك، **وانظري**: مَنْ مِنْ بين هؤلاء ابتُليت بمشاعر إرادة العلوّ تجاههم؟! وهذا فقط هو الّذي تبحثين عن علاج في قلبك له؛ وكلّ التّواضع الثّاني -إن شاء الله- عند الله مكتوب.

لكن هذا الّذي هو نقطة المحكّ أيّا كان، هو الّذي طيلة الحياة ونحن نتنافس ونريد أن نعلو عليه! فهذه الإرادة هي الّتي تحتاج إلى علاج، لكن لا تعمّمي المفهوم؛ بحيث أنّه يصبح فضفاضًا، فتَطْمَئِنّي على نفسك بأنّه ليس

---

(١) أخرجه البخاري (١٣).

لديك مشكلة! ونحن كذلك لا نريد أن نخترع لأنفسنا مشكلة! إذا لم يكن لدينا مشكلة -فالحمد لله ربّ العالمين- لكن قد يكون هناك مشكلة وأنا أغمض عيناي!

كيف تقيسينها؟ فقد وضع لك عليّ -رضي الله عنه- مقياسًا واضحًا، ما هو المقياس؟ أنّه في أثناء تجمّلك، في أثناء شرائك، في أثناء دراستك، في أثناء انتظار النّتائج من أيّ شيء؛ كلّ الّذي يهمّك أنّك تكونين أعلى من هذا!

فهذا سيخرجني بنتيجتين:

النّتيجة الأولى: لابدّ أن نصير صادقات مع أنفسنا، وفي نقطة الضّعف فقط هذه بالذّات نعالج أنفسنا.

النّتيجة الثّانية: أنّك لا علاقة لك بنصح ولا إرشاد أيّ أحد في هذا الباب، غير البيان العامّ، لماذا؟ لأنّ الله أعلم بما في نفوسهم، يعني: هذا الباب بالذّات **"باب إرادة العلوّ"**، هذا شأن في داخل الإنسان، فلا يوجد إلّا البيان العام، **يعني**: نحن نقرأ عن قارون، ونقول: (هكذا قارون حاله، كان يريد العلوّ، والمطلوب منّا ألّا نريد العلوّ على الخلق)، فقط هذا المفهوم العامّ؛ أمّا أنّك تحكمين على النّاس، فهو أمر في داخل النّفوس لا تستطيعين أن تحكمي عليه.

بمعنى: أنّه -وهذا أمر نكرّره على أنفسنا دائمًا- : كلّ مرة أدرس فيها الكبائر -خصوصًا القلبيّة- لا أحاول أن أخرج عن نفسي؛ أفكّر دائمًا في إصلاح نفسي، والّذين تحت يدي أبعدهم ما استطعت عن ذلك؛ ولذلك تجدين

المناهج المتأخّرة، أو المناهج المعاصرة، تصنع أناسًا يريدون العلوّ، تصنعهم صناعة! بحيث أنّ كلّ واحد يصير كالبالون المنتفخ بمجرد أن يصطدم بالواقع؛ يسقط على رأسه، وتحصل له من الاضطرابات النّفسيّة ما تحصل! لأنّه طيلة الوقت يشعر أنّ أهمّ شيء أن يكون أعلى من النّاس الّذين معه! وليس بأن يفكّر أن يكون علوّه في السّماء حيث تذكره الملائكة، بل يذكره الرّبّ الكريم -سبحانه وتعالى- فهذا هو غافل تمامًا عنه ولا يفكّر فيه، كلّ الّذي يفكّر فيه أن يكون أحسن من هؤلاء الّذين في الأرض وينافسهم، ويدافعهم، والله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، إشارة إلى ما عنده، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1]، **والمعنى الضمني للآية**: وغير ما عند الله فلا يتنافس عليه المتنافسون، **يعني**: الآية تقول: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، وليس في غيره، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أما أيّ شيء ثانٍ لا يستحقّ أن تتنافس حوله.

إذًا معنى كلام عليّ -رضي الله عنه- أنّنا لابدّ أن نطهّر نفوسنا من إرادة العلوّ على الخلق.

يأتي أحد فيقول: (أنا لا أفكّر في الآخرين، لا أفكّر أن يكون شراك نعلي خيرًا من شراك نعل غيري، لكن أفكّر أن أكون في حالة حسنة، هل هذا ممنوع؟!)، هيّا سنقرأ الكلام الّذي بعده:

قال: (وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ الْفَخْرَ وَالتَّطَاوُلَ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذْمُومٌ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تواضَعُوا، حَتَّى لَا يفخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»، وَأَمَّا إِذَا

(١) المطففين: ٢٦.

أَحَبَّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ التَّجَمُّلِ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً، أَفَمِنَ الْكِبَرِ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: "لَا إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ".)

إذًا: ما هو الجواب؟ **الجواب**: أنّ المنهي عنه هو الّذي أُريد به التّفاخر والتّطاول، أمّا مجرّد الجمال فهو ليس ممنوعًا، يعني: أنت تريدين أن تتجمّلي؛ ما دمت لا تفكّرين أن تكوني أحسن من النّاس؛ لا يدخل في هذا الباب -طبعًا- مع المحاذير الأخرى الّتي تتّصل بالتّجمّل، لكن نحن موضوعنا: إرادة العلوّ.

إذًا: المنهي عنه: (الإرادة) أن تريدي في نفسك أن تكوني أعلى من غيرك. وإن كنت أريد أن أجتهد، وأن أصل إلى المراتب العليا في العلم، وفي العمل، ماذا أفعل؟ امشي في طريقك، أهمّ شيء أن لا تفكّري أن تكوني أعلى من غيرك؛ فهذا هو الخطّ الممنوع، أمّا أنّك تسيرين في طريقك وتجتهدين، فاجتهدي وعاملي ربّ العالمين، استعيني به، واطلبي منه العون، وفي نفس الوقت اطلبي منه أن يقبل منك هذا العمل، حتّى لو كان عملًا متّصلًا بالدّنيا فمنه العون سبحانه؛ ولو صحّت إرادتك، وما أردت العلوّ، وأردت نفع المسلمين، فهذا له باب أجر.

فالمقصد الآن: أنّ الممنوع إرادة العلوّ.

قراءة في "تفسير القنّوجي" في قصّة قارون

السّؤال: والفساد ما علاقته بإرادة العلوّ؟! ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾:

(**قال القنّوجي:** -رحمه الله- (تلك) التي سمعت بخبرها، وبلغك شأنها (الدار الآخرة) أي: الجنة والإشارة إليها القصد التعظيم لها، والتفخيم لشأنها (نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض) أي: رفعة وتكبرًا على المؤمنين، وقيل: ظلمًا، وقيل: استطالة على الناس، وتهاونًا بهم بالبغي.

(ولا فسادًا) أي عملًا بمعاصي الله سبحانه فيها، كقتل النفس، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر أو دعاء إلى عبادة غير الله. **ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما**، كما قال: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾، فعلق الوعيد بالركون.)

هذا الكلام فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: معنى الفساد: ما معنى الفساد؟ بالجملة المجملة: أيّ عمل يتّصل بمعاصي الله. هو يقول: (ولا فسادًا: أي عملًا بمعاصي الله سبحانه فيها)، المعنى: أيّ عمل فيه معصية يُعتبر فسادًا.

السّؤال الآن: ما العلاقة بين العلوّ، وبين الفساد؟ غالبًا النّاس لا يستطيعون أن يعلوا علوًّا تامًّا إلّا إذا حصل نوع من أنواع الفساد، وبمثال بسيط بعيد عنّا: -الله يحفظنا منه- من أجل أن يعلو هذا التّاجر مثلًا على

بقيّة التّجار، ماذا يفعل؟ يحتاج إلى الرّشوة، فالرّشوة تُعتبر من الإفساد، استعملها لأجل العلوّ. بهذه الطّريقة.

أحيانًا يريد هذا الموظّف أن يكون أحسن من زملائه عند صاحب هذا المكان، فماذا يفعل؟ يرتكب فسادًا! **بمعنى**: يكذب، يغتاب، ينقل الأخبار. فيفعل هذا كلّه لأجل أن يحصل له علوّ.

سنقرّب الدّائرة إلى أنفسنا، نكون عائلة، فيها أحد له قيمته، والباقي تحته؛ فلأجل أن نتقرّب إليه؛ ننقل الكلام، نكذب، إلى آخره، لأجل أن يكون لنا مكانة! فصار هناك اتّصال شديد جدًّا بين إرادة العلوّ والفساد. غالبًا حين يريد الإنسان العلوّ؛ فالطّريق المستقيم لا يأتي له بالعلوّ الّذي يريده هو، فماذا يحصل؟ لابدّ أن يفعل فسادًا.

ولذا نذكر فتنة البخاري في آخر حياته، وهذا الرّجل ابتلي بمن يذمّه في آخر حياته، وكان له قبول شديد، دخل إلى بلد، وكانت هذه البلدة مليئة بالعلماء، في أوّل الشّأن كانت نفوسهم سليمة لم يحرّشهم الشّيطان، أرسلوا طلاّبهم إلى البخاري، فلمّا رأوا البخاري التفتت وجوههم وقلوبهم إليه، وصاروا لا يذهبون لشيوخهم الأوائل، فوقع في نفس أحدهم غاية البغي! ووقع في نفسه غاية الحسد! فماذا يريد هو؟ يريد أن يعلو على البخاري. لمّا أراد العلوّ على البخاري، كان لابدّ أن يقوم بفساد - بكلامنا العامّي- فلفّق له شأنًا بحيث أنّ النّاس ينبذون البخاري! ووقع منه ذلك، ووقع في نفوس النّاس وأخرجوا البخاري من تلك البلدة، حتّى أنّ البخاري بعدها مات في قرية ما صلّى عليه ولا حتّى سبعة أشخاص! لكن أنت الآن لا تعرفين إلّا البخاري، ولا

تعرفين من أراد العلوّ! يعني: البخاري ما أراد العلوّ، لمّا وجد النّاس بهذه الطّريقة تركهم وخرج، ومات في هذه القرية الّتي لا يعرفها أحد. وإنّ هذه من حكمة الله؛ لأنّ مع هذه المكانة العظيمة، لو كان النّاس يعرفون مكان قبره، لوقع التبرّك في قبره! لكن النّاس لا يعرفون أين قبر البخاري، من كثرة ما ضلّوا عنه، أين هو؟! ثمّ رفعه الله -عزّ وجلّ- والّذي أراد العلوّ؛ عوقب بخلاف مقصده. فاليوم أنت تسمعين القصّة لا تسمعين إلّا عن البخاري ولا تسمعين عن الّذي أراد العلوّ!

المقصد الآن: أنّ الّذي أراد العلوّ لن يستطيع أن يريد العلوّ إلّا حين يُحدث في الأرض فسادًا! وهكذا كلّ واحد بعده يأتي يريد أن يكون له منصبًا عند النّاس ومكانة، يعني يصير حديث النّاس، فماذا يفعل؟ يأتي فيقول لك: (السّنّة لا مكان لها والبخاري لا قيمة له!) لماذا؟ ليصير حديث النّاس.

حين يقول أحد ذلك، فلا تأتوا به على طرف لسانكم! ولا تتكلّموا عنه. كلّ الّذي سيحدث أنّ التّاريخ سيضعه ويسجّله في المزبلة! يعني: من أوّل شخص أراد للبخاري ما أراد، لآخر شخص إلى أن تقوم السّاعة يريد في البخاري ما يريد ستكون النّتيجة واحدة. والبخاري ليس مقدّسًا ولا معصومًا؛ البخاري يرمز الآن بالنّسبة للأمّة إلى الاجتماع على السّنّة، والّذي رفعه هو الله، وليس نحن من رفعناه! فهل نقوم نحن نحارب من رفعه الله؟! فإن من يحارب من رفعه الله تكون النّتيجة في مزبلة التّاريخ بدون مناقشة!

فالمقصد الآن: أنّه لابدّ أن تتصوّري هذا: أنّ النّفس لن تقف فقط عند إرادة العلوّ؛ حين تريد العلوّ ستنفّذ الفساد. لابدّ أن تنفّذ الفساد! وأنت

تصوّري: فإنّ هذه المشكلة تبدأ من عند هؤلاء الصّغار الّذين في المدرسة، يعني: تأتي عند طالبة في الصف الرّابع الابتدائي، أو في الخامس، تريد أن يكون تعبيرها أحسن تعبير -نفترض- وصاحبتها دائمًا تُمدح على التّعبير، فماذا تقوم هي بفعله؟ تقوم بعمليّة سرقة، فتمزّق لها الصّفحة، وإلى آخره، فأنتنّ تعرفن هذا كلّه، هي ماذا تريد؟ أن تعلو! ماذا تنفّذ؟ فسادًا!

فإذًا: هكذا اقترنت إرادة العلوّ مع الفساد، وعلى ذلك حين ترين فسادًا في أيّ موقف بسيط في البيت من أحدهم يفسد فيه للثّاني، فكّري جيّدًا: هو فيمَ يفكّر؟ قد لا يكون يريد التّخريب عليه، لكنّه يريد أن ينافسه، فيريد أن يكون أعلى منه. فأكيد أنّ هناك خطأ من الممكن أن نكون نرتكبه ومن أجل ذلك وصل للفساد، لكن أحيانًا يكون هو مريض بقلبه! -وهذا كلام عن النّاضجين- هم يكونون مرضى فلا يقبلون بما قسمه الله لهم وما قسمه لغيرهم، فأيّ أحد تصير له مكانة، يحاول أن يفسد ويفسد حتّى يزيحه من مكانه.

فالمقصد: أنّ العلوّ لابدّ أن يأتي معه فساد. والدّار الآخرة لمن؟! لمن نقيت سريرتهم، لمن حصل هناك نقاء في سريرتهم، حتّى أنّهم يحبّون لإخوانهم لا يحبّون لأنفسهم، كما سيتبيّن في النّصّ الّذي بعده.

بقيت فقط جملة مهمّة جدّا في هذا الكلام: نُنهي بها مناقشة الآية.

قال: (**ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما**، كما قال: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ فعلق الوعيد بالركون.)

قال: (**ولم يعلق الموعد**)، يعنى ماذا (**الموعد**)؟ **بمعنى**: الوعد، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾، هذا هو الموعد، وعدهم ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾، ما علّقها بترك العلوّ والفساد، هل قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ لمن ترك العلوّ والفساد؟ لا، (**ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما**).

فإذًا هذه هي النّقطة المهمّة: ترك ماذا؟ (**ترك الإرادة**) إذا تركت الإرادة من باب أولى أنّك تترك العمل، فلهذه الدّرجة الإرادات غاية في الخطورة.

ولا تنسوا: أنّنا حين قرأنا في قصّة قارون، وجدنا أنّ الله -عزَّ وجلَّ- سمّاهم -أليس لديّ فرقتان؟- سمّى ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1] بهذه الإرادة، **بمعنى**: أنّ الإرادة شيء خطير، لدرجة أنّ الّذي يحبّ الدّنيا يُسمّى:

⇐ يريد الحياة الدّنيا.

⇐ ويريد الفساد.

⇐ ويريد العلوّ.

فإرادتك الّتي داخل قلبك إنّما هي وصف لك؛ لأنّ عندنا طرفان:

طرف: ﴿يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

وطرف: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[2].

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، فقد وُصفوا بالعلم الّذي عندهم. والطّرف الثّاني وُصف بإرادته. يعني: أنت الّذي في قلبك من إرادات يصير اسمك.

---

(١) القصص: ٧٩.

(٢) القصص: ٨٠.

- فإذا كنت تريد الدّار الآخرة صار اسمك: الّذين يريدون الدّار الآخرة.

- وإذا كنت تريد الحياة الدّنيا يصير اسمك: ﴿الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

فصارت إرادتك الّتي في قلبك عبارة عن وصفك الكامل؛ ولذلك:

⇐ هما: «فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ».

⇐ وهما: «فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ».

بحيث أنّك تحرّرين إرادتك، لا تتركي قلبك يرتع في أيّ مكان، لابدّ أن تجعليه يرتع في مرعًى خصب كلّه خير؛ بحيث أنّه في النّهاية لا يتغذّى إلّا بالحقّ والخير ولا تكون عندك إرادات إلّا إرادات يحبّها الله.

هذا سيتبيّن بوضوح حين يأتينا الحديث الثّاني.

قراءة في كلام "ابن بطّال" في الدّليل الثّاني

الحديث الثّاني نحن ناقشناه، لكن الآن ننقل فقط كلامًا من كلام أهل العلم؛ وإنّ هذا كلّه فقط ختامًا حتّى نختم الكبيرة، وإلّا فإنّنا قد ناقشنا كلّ الأدلّة.

نأتي إلى الحديث الثّاني الّذي يبيّن لنا تمامًا ما هو ضدّ إرادة العلوّ. الإرادة أين تكون؟ في قلبك. فالآن لا نريد مُريد العلوّ؛ وإنّما نريد ما هو علاج إرادة

العلوّ والفساد؟ ما هو علاجها؟ ماذا تفعلين؟ ما هو المقياس حتّى تعرفين أنّك لا تريدين العلوّ؟

قال: (عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ -صلّى الله عليه وسلّم- قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ». **قال ابن بطّال:** معناه: لا يؤمن أحدكم الإيمان التام).

ونحن مرّ معنا سابقًا أنّ هذا المنفي: (لا يؤمن أحدكم)، هو: (الإيمان التام)، يعني: لا يؤمن أحدكم الإيمان التامّ إلّا إذا أحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه.

قراءة في كلام "ابن رجب" في الدّليل الثّاني

(**قال ابن رجب في فتح الباري:** لما نفى النبي -صلّى الله عليه وسلّم- الإيمان عمن لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه دلّ على أن ذلك من خصال الإيمان، بل من واجباته، فإن الإيمان لا ينفي إلا بانتفاء بعض واجباته، كما قال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهو مُؤْمِنٌ»[1].)

إذًا: هذا قول ثانٍ، القول الأوّل المشهور عند العلماء: أنّ المنفي، هو: كمال الإيمان، الإيمان التّامّ، يعني: حين تسمعين: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، كأنّك تقولين: (لا يؤمن أحدكم إيمانًا كاملًا حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه). كلام ابن رجب، أخذ منحنى آخر، ماذا قال؟ (دلّ على أن ذلك من خصال الإيمان، بل من واجباته، فإن الإيمان لا ينفي إلا بانتفاء

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٢).

بعض واجباته) كلام ابن رجب، **معناه**: أنّ هذا الإيمان هو الإيمان الأساسي، فينقص إيمانك على قدر نقص هذا الواجب.

إذًا معنى ذلك: أنّه يجب عليك أن تحبّي لأخيك ما تحبّيه لنفسك، يجب عليك. وعلى ذلك ينقص من إيمانك الواجب وليس إيمانك الكامل، فهناك فرق بين إيمانك الواجب وإيمانك الكامل:

⇐ إيمانك الكامل معناه: الّذي يعلّيك الدّرجات العُلا. هذا الإيمان الكامل.

⇐ الإيمان الواجب معناه: الّذي يجب عليك أن تفعله، يجب عليك أن تعتقده.

فإذا كان الإيمان الكامل، أو الإيمان الواجب، فإنّ هذا سيخرّجنا بنتيجة واحدة مهمّة، **هي**: أنّ هذه المسألة لابدّ أن تكون منّا على بال، خصوصًا إنّ فقدان هذه: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، فقدانها **معناه**: أنّ القلب سيكون فيه ما فيه من الحسد، من الغلّ؛ لأنّه حين لا أحبّ لأخي ما أحبّ لنفسي؛ لابدّ أن أكون أكره له ما أحبّ لنفسي! **يعني**: أريد أن أنجح، ولا أريد له أن ينجح! فأنا أكره له الّذي أحبّه لنفسي، وهذا من باب الغلّ، من باب الحسد!

لذلك قال: (وإنما يحب الرجل لأخيه ما يحب لنفسه) متى؟ (إذا سلم من الحسد والغل والغش والحقد، وذلك واجب)، فصار هذا من الإيمان الواجب، يعني: الواجب عليك أنّه كلّما وجدت في نفسك غلّا وحسدًا، أو غشًّا

أو حقدًا، يظهر بأنّك لا تريدين له الخير؛ لابدّ أن تطهّري قلبك، وتعرفي أنّ هناك شيئًا ناقصًا، وتزيدين إيمانك بحيث أنّك تفهمين أنّ طهارة القلب من هذا، **هو**: القلب السّليم الّذي تلقين به ربّك.

قال: (كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تدخُلوا الجنَّةَ حتَّى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا»[1] فالمؤمن أخو المؤمن يحب له ما يحب لنفسه ويحزنه ما يحزنه)

قال: (كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادِّهِمْ، وتَراحُمِهِمْ، وتَعاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى»[2] فإذا أحب المؤمن لنفسه فضيلة من دين أو غيره أحب أن يكون لأخيه نظيرها من غير أن تزول عنه).

إذًا ما معنى أن تحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك؟ أيّ (فضيلة من دين أو غيره) تحبّها لنفسك تتمنّي أن تكون لأخيك دون أن تزول عنك. سنرى كلام ابن عبّاس:

(كما قال ابن عباس:) رضي الله عنهما ((إني لأمر بالآية من القرآن فأفهمهما فأودّ أن الناس كلهم فهموا منها ما أفهم).)

معناها: هو في مكانه الآن ما حرّك ساكنًا، لكن أوّل ما فهم الآية، ووصل إلى قلبه حلاوة المعنى، أوّل شيء يخطر على باله أنّ النّاس يفهمون الّذي فهمه، وليس ما يحصل اليوم من تعزيز شأن: أنّني أنا أفهم وغيري ما يفهم

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١).

لأجل أن يصيروا تحتي! أين إرادة العلو في المعنى؟ حين أفهم، ولا أحبّ أن تفهم أنت، لأجل أن أصل أنا لأكون أعلى منك! لكن حين أتمنّى أن تفهم أيضًا، **هذا معناه**: خلوّ القلب من الحسد، من الغلّ، من إرادة العلوّ، **فهنا تكمن المشكلة**: إذا ما أحببت لأخيك ما تحبّينه لنفسك، تكونين تقصدين أن تعلي عليه! **هذه نتيجة مباشرة**: تكونين تقصدين أن تعلي عليه حتّى لو ما شعرت بذلك! لأنّه لو صار عندي أنا، وعندك أنت؛ لن يصبح عندي تميّزًا لي والّذي يريد العلوّ يريد التّميّز. هذه الكلمة السّاحرة الّتي أصبحت عبارة عن قضيّة تسويقيّة، طيلة الوقت يقولون لك: (لأجل أن تتميّزي، التّميّز) بينما في النّهاية هذا التّميّز يكون لابدّ أن يتضمّن أنّك لا تحبّين لأخيك ما تحبّينه لنفسك؛ لأنّك لو أحببت لأخيك ساواك فما تميّزت عنه.

وهذا كلّه إنّما بسبب حبّ الدّنيا. يعني: حبّ الدّنيا هو الّذي يُغرّق النّاس في إحساسهم أنّه لابدّ أن يكونوا متميّزين على غيرهم، لا يفكّرون في التّميّز في السّماء، لا يفكّرون في التّميّز عند الملائكة الكرام، وعند ربّ العالمين، لا يفكّرون في هذا وإنّما يفكّرون في الدّنيا ساحة التّميّز عندهم.

(وقال الشافعي: (وددت أن الناس كلهم تعلموا هذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء).

مثل كلام ابن عباس الآن، يعني ابن عباس يقول: أنّه يمرّ على الآية يفهمها من القرآن، فيتمنّى أنّ كلّ النّاس يفهمونها؛ الشّافعي يتكلّم عن العلم الّذي خصّه الله به، والشّافعي يُعتبر من عباقرة -لو صحّت هذه الكلمة- المسلمين، فرجل مثل هذا يكون أجرى الله على يديه شيئًا كثيرًا من الخير للمسلمين، وله

فهم شديد وذكاء وسرعة حفظ، وكلّ هذا الّذي وُصف به، يقول: (وددت أن الناس كلهم تعلموا هذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء)، وهذا القلب الطيّب الّذي خَلَا من إرادة العلوّ هو الّذي رفع شأنه، هو الّذي جعل له اسمًا في التّاريخ معروفًا، وكلّ من تعلّم سواء كان شافعيًّا، أو ليس شافعيًّا كمذهب؛ يعرف ما للشّافعي من مكانة؛ بل كتبه وأحد رسائله المهمّة تُعتبر بالنّسبة للعلماء وخصوصًا في علم الفقه كأصل يبنون عليه. لماذا يرتفع هذه الرّفعة؟ ويُكتب كتابه بهذه الصّورة؟ ويبقى محفوظًا إلى هذا الزّمان؟ لابدّ أن يكون في القلب ما فيه من النّقاء.

ولذلك هذه الجملة الّتي أُثرت عنه، لكن النّاس الآن كلّ واحد عنده القليل، القليل من الذّكاء، فتجده إمّا خائفًا من العين والحسد، وإمّا من الجهة الأخرى: (فقط انظروا لي، أنا موجود!) وهذا كلّه بسبب عدم تقدير أنّ هذه أرزاق رُزِقْنَاهَا، يعني مثل الّذي في يده مال من الله، كما أنّ الّذي في عقله ذكاء، كلّها عطايا من الله، مالك إلّا أن تصرفها في سبيل الله، ومالك إلّا أن تمنعي نفسك من اعتقاد أنّك تملكينها؛ وإلّا فإنّ النّاس يبيتون في بيوتهم أصحّاء، ويصبحون مرضى، والأمر بيد الله.

يقول الآن؛ لأجل أن ترين التميّز الّذي هو داء العصر:

قال: (فأمّا حبّ التّفرد عن الناس بفعل ديني أو دنيوي: فهو مذموم).

فإنّ (التّفرد)، هذا الّذي اسمه اليوم (التّميّز). (لكنّي أريد أن أنجح في عملي)، اجتهدي، وافعلي، فهذا ابن عباس حبر الأمّة، وهذا الشّافعي العبقري، ما منعهما حبّهما الخير لغيرهما أن يكونا بهذه المكانة، هذا شأن

وهذا شأن آخر، فالّذي غرّك وقال لك إنّك لا تستطيعين أن تعملي إلّا حين ينافسك النّاس وتنافسينهم! فقد غرّك في سلامة قلبك، وهذه هي سياسة النّاس اليوم، قليل من الكُسالى لا يفهمون شيئًا، يأتي شخص ويكون الأوّل عليهم، وأهله -ما شاء الله- يفعلون له احتفالات وهو أحسن الأغبياء! وكلّ القضيّة أنّهم قد أخذوا ملخّصات يحفظونها، وأخذوا أناسًا فقط يغشّونهم. وبعد ذلك يأتون يقيمون أيضًا حفلة فوقها، وفرحين بولدهم الأوّل وولدهم الثّاني! وماذا يكون؟! وكذلك لا تحسدونه! وفي نفسه أيضًا أنّه أحسن من غيره! كلّ هذا كلام.

يعني: مثل هؤلاء صنعوا التّاريخ، ومع ذلك هذه قلوبهم السّليمة، فلا تظنّين أبدًا أنّ سلامة القلب وحبّ الخير للغير قد ينقص من مكانتك، أو ينقص من اجتهادك؛ لا، فإنّك إذا فهمت أنّك لا تجتهدين إلّا إذا كان هناك أحد نافسك؛ تصيرين كالأطفال الصّغار لا يلتفتون لألعابهم في البيت إلّا حين يأتي ولد الجيران يلعب معهم فيهتمّون بلعبتهم! وإلّا فإنّك إذا كان عندك فهم وفكر كنت ستجتهدين سواء نافسك أحد أم لم ينافسك، وأصلًا حتّى حين يأتي أحد ينافسك فأنت لا تفكّرين فيه، فأنت سائرة في طريقك، وهذا يلحقه أيضا أنّ الّذي يفكّر ينافسك، تأتينه تعلّمينه، وتفهّمينه، وتقولين: (هذا زكاة العلم الّذي أعطاني الله إيّاه).

لكن: هل هذا الّذي يحصل؟! ليس هذا الّذي يحصل! المرأة تطبخ طبخة -الله يساعدها- يسألونها: (كيف طبختها؟)، فتقول لك: (هذا سرّ المهنة!) يعني: حتّى أنّه لا يوجد تعاون، وفقط أنا، وأنتم كلّكم لا شيء!

قال: (قال الله تعالى:" ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ فقد قال علي وغيره: هو أن لا يحب أن يكون نعله خيرًا من نعل غيره ولا ثوبه خيرًا من ثوبه وفي الحديث المشهور في " السنن ": " من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه فليتبوأ مقعده من النار ".)

الآن وصلنا للأشدّ من المعاني، نحن قلنا: لتكون مؤمنًا يجب أن، ويجب! الآن وصل الأمر أنّ الّذي يفعل هذه الأمور الّتي في أصلها عبادة، **وهي**: تعلّم العلم، وهنا يُراد به العلم الشّرعي من حفظ القرآن وما يتّصل به، يتعلّمه (ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه)، **يعني** ماذا (يصرف به وجوه النّاس إليه)؟ **يعني**: يتميّز عليهم ويصير فوقهم، (فليتبوأ مقعده من النار)، **فهذه غاية التّهديد**: أنّه سيتبوّأ مقعده من النّار. **معناها**: أنّه ارتكب كبيرة عظيمة في إرادة التّفرد، وإرادة العلوّ على النّاس.

وسأعيد عليكنّ: فإنّ هذه سياسة في التّربية أفسدت الأبناء، وجعلتهم لا يتقدّمون إلّا حين يكون هناك أحد ينافسهم، وجعلتهم يرون أنّ الغاية هي أن يعلوا شأنهم، ويصيرون مشهورين وتصير لهم مكانة، فأصبحوا يتمنّون أن يكونوا مشهورين ولو باللّعن! لأنّك ترينهم يتمنّون المنحطّ من الأمور والسّخيف منها والّذي يكون فيه ما فيه من فضيحة الأهل؛ يرونه مسلكًا من أجل أن يشتهروا ويكون لهم مكانة.

فالمقصد: أنّهم حين يتربّون على أن يتميّزوا، ويصيروا أحسن من غيرهم، وطيلة الوقت: (أهمّ شيء أن تكون أحسن من غيرك!) **معناها**: أنّني ألقّنه بأن

يكون مريضًا قلبيًّا! وفي اللّحظة الّتي يرى فيها أحدًا أعلى منه؛ يبذل جهوده في الإفساد لأجل أن يصير أقلّ منه! وهذا راقبنه، وسترينه واضحًا.

قال: (وأما الحديث الذي فيه أن رجلًا سأل النبي -صلّى الله عليه وسلّم- فقال: إني أحب الجمال، وما أحب أن يفوقني أحد بشراكه أو بشسع نعلي، فقال له النبي -صلّى الله عليه وسلّم- «ليس ذلك من الكبر»، فإنما فيه أنه أحب ألّا يعلو عليه أحد، وليس فيه محبة أن يعلو هو على الناس، بل يصدق هذا أن يكون مساويًا لأعلاهم فما حصل بذلك محبة العلو عليه والانفراد عنهم).

هذه مسألة جديدة، **وهي**: (أنا لا أحبّ أن أكون أقلّ من النّاس)، ليس هناك مشكلة، مادام ليس هناك معصية، وليس هناك تنافس على الدّنيا، لا تذهبي مكانًا وتصيرين أقلّ من النّاس، لكن لا تفكّري في أن تعلي عليهم، فصار هناك فرق بين المعنيين، **يعني**: أنت تعرفين أنّ هؤلاء النّاس -الحمد لله- ليس لديهم لا فسق ولا فجور ولا عُري ولا أيّ شيء، وسيلبسون لباسًا معيّنًا، بصورة معيّنة، فتقولين: (والله أنا ما أريد أن أعلو على النّاس الّذين سأذهب إليهم!)، وتذهبين لهم بلباس البيت! لا، ليس هكذا تفكّرين! أنت لا تعلي عليهم، ولا تصيري أقلّ منهم؛ لأجل أن لا تتوجّه عليك اللاّئمة، فهناك فرق بين أنّك تريدين العلوّ، وبين أنّك لا تريدين أن يكون هناك أعلى منك فَيُنْظَرُ إليك بنظر الاحتقار.

وهذا عدم توازن في التّفكير، فأنت ما هو الممنوع عليك الآن؟

⇐ أن تريدي العلوّ.

⇐ وأن تفعلي العلوّ.

⇐ وأن تتمنّي أن تكوني أعلى من النّاس.

أنت تحبّين لأخيك ما تحبّينه لنفسك. تمام هذا هو المطلوب أن نكون متساوين، فلم يقل لك أحد البسي لباسًا مبتذلًا ليصير غيرك أحسن منك! لا ليست هكذا الشّريعة أبدًا، إنّما أحبّي لأخيك ما تحبّين لنفسك، فتصيري أنت عندك، وهو عنده، فتصيران سواء متكافئين، يصير هناك التّكافؤ، فالممنوع هو العلوّ، لكن التّكافؤ ليس ممنوعًا.

(أنا أجد أناسًا كلّما أحاول أن أصير مثلهم، يعلون عليّ!)، حين نصل إلى حدّ أنّهم يبدؤون ينافسونك، لا تدخلين معهم في منافسة، صِلِي للحدّ المَرْضِي فقط، وإلى هنا نقف؛ لأجل أن لا يحصل أنّهم يعلون فتقومين أنت بالعلوّ عليهم! وبهذه الطّريقة تصير منافسة على الدّنيا، وتدخلين معهم في حرب تتّصل بالدّنيا! **يعني**: المطلوب المكافئة، المعتدلة، المقبولة شرعًا؛ فالمقبولة شرعًا هذا شرط! وليس إذا هم تعرّوا، تقومين أنت تزدادين عُرْيًا! وليس إذا هم يتنازلون عن الثّوابت فتقومين أنت تزدادين تنازلًا! ليس هذا المطلوب أبدًا.

فنحن مشكلتنا: دائما عدم التّوازن، لا تتطرّفي؛ ولذا تحبّين أن يكون ثوبك حسن، نعلك حسن، فما قيل لك اذهبي في حالة ما تُرضي أبدًا لأجل أن تكوني ممّن يحبّ لأخيه ما تحبّينه لنفسك.

قال: (فإن حصل لأحد فضيلة خصّه الله بها عن غيره فأخبر بها على وجه الشكر، لا على وجه الفخر كان حسنًا، كما كان النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول شافع ولا فخر»[1]. وقال ابن مسعود: لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته.)

نحن لن نناقش قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لأنّه خاصّ به صلّى الله عليه وسلّم، لكن نناقش قول ابن مسعود. فما هي هذه النّقطة الجديدة في هذه المسألة؟ لو جاء أحد وبيّن خاصّيّة خصّه الله بها، لأجل غاية حميدة؛ لا مانع، ليس فيها إرادة علوّ؛ فليس لأنّك تقولين خاصّيّة خصّك الله بها لإرادة خيّرة، تصبحين تريدين العلوّ.

كلام ابن مسعود: (لو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته.)، **يعني**: هو يقول عن نفسه أنّه يكاد يكون أعلم الموجودين، هل هذا من ابن مسعود يُعتبر إرادة للعلوّ؟! كونه صحابيّ -رضي الله عنه- فأنت مباشرة ستقولين: لا! لكن افهميها جيّدًا: ابن مسعود -رضي الله عنه- مرجع للصّحابة، مرجع للتّابعين؛ والمتعالمون كثيرون، والّذين سيتكلّمون في العلم بغير علم كثيرون، فمن المفترض أنّ من عنده علم، يمنع الّذي ليس لديه علم من الكلام، فماذا يفعل؟ يُبرز ما أعطاه الله، **يعني**:

مثلا: يأتون في مجلس، **افترضي**: أنّنا الآن في الحجّ، والنّاس لا يعرفون بعضهم، وهؤلاء النّساء يجلسن في خيمة النّساء، أو يجلسن في الباص، فيبدأ الآن مجلس الفتاوى! والنّساء يُفْتِينَ بعضهنّ، وكلّ واحدة تتكلّم من

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨).

عندها، وهناك واحدة طالبة علم، فالآن لابدّ أن توقف هذا السّيل في القول على الله بلا علم، فالآن ما المفترض أن تفعل هنا؟ ماذا تقول لهنّ؟ (أنا طالبة علم، وهذه الأحكام كذا، وكذا)؛ لمّا قالت لهنّ: (أنا طالبة علم)، هل تريد أن تصير أحسن منهنّ؟! لا؛ وإنّما الوضع أجبرها على ذلك.

إذًا معنى ذلك: أنّه لو خصّ الله أحدًا بفضيلة، وكان من الواجب بيانها؛ فإنّه يبيّنها، ولا يقل: (لا، أنا أخاف من إرادة العلوّ).

قراءة في كلام أهل العلم في الدّليل الثّالث

هيّا نقرأ الحديث الأخير؛ لأنّه سيكون هذا آخر كلام لنا في هذه الكبيرة -إن شاء الله- والأسبوع القادم نبدأ في الّتي بعدها. اقرئي:

قال: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

هذا الحديث ضعيف وفي معناه ما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».)

إذًا: الحديث الّذي ذكره الشّيخ في الباب، الّذي هو: «لاَ يُؤمنُ أحدكُمْ حتَّى يكونَ هواهُ تَبعاً لما جِئْتُ بهِ»[1]، لا مانع من الاستشهاد به، والسّبب؟ أنّ معناه يؤيّده حديث صحيح. ما هو الحديث الصّحيح؟ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٢ رقم ١٥ والخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٩ والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٢.

إذًا: هكذا من جهة صحّة الحديث، **لابدّ أن تعرفي:** أنّه إذا استُشهد بحديث ضعيف -هذا كلام في الهامش- على معنى صحيح يؤيّده حديث آخر صحيح؛ لا مانع من الاستشهاد بالحديث الصّحيح، **يعني:**

مثلًا: في فضل صلاة الجماعة، هناك فيها أحاديث كثيرة صحيحة، وهناك بعضها ضعيف، لكنّها تؤيّد نفس المعنى، فإذا مرّت على لسان الخطيب؛ لا مانع بها؛ لأنّها تؤيّد معنى صحيحًا. متى يكون هناك مانع من الاستشهاد بحديث ضعيف؟ إذا كان يؤسّس معنى ليس موجودًا في أحاديث أخرى.

نأتي الآن ونرى: هذا الحديث، ما مكانه بالنّسبة لإرادة العلوّ؟ كيف تعالجين إرادة العلوّ بهذا الحديث؟ الآن الّذي يريد علوًّا على الخلق، ومن ثمّ يريد الفساد؛ يكون من المؤكّد أنّه ناقص في تقديم محبّة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، واتّباعه صلّى الله عليه وسلّم.

فلأجل أن تعالجي أيّ علوّ في نفسك؛ لابدّ أن تجعلي النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- النّموذج الكامل أمامك، ويبقى سَمْتُهُ، وهديه، وسَيْرُهُ صلّى الله عليه وسلّم، هو الّذي يملأ سمعك وبصرك، ولا يبرز أبدًا في تفكيرك أيّ أحد يسمّيه النّاس عظيمًا؛ إنّما النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ومن اتّبع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

والنّاس ما وصلوا إلى إرادة العلوّ، والمحاولات للانتفاخ، والعلوّ على الخلق، إلّا لمّا أتوا برموز هذا شأنها! الرّموز تكون أصلا تريد العلوّ، أو وقعت في العلوّ، أو حصلت لها الشّهرة، فأصبح هوى النّاس اتّباع مثل هؤلاء! فأنت لا تؤمني حتّى يكون هواك تبعًا لما جاء به النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، حتّى يكون

النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أحبّ إليك من ولدك، ووالدك، والنّاس أجمعين؛ وهنا هذه المحبّة ليست محبّة استحسان؛ إنّما هي محبّة تعظيم، واتّباع، ومعرفة أنّ هذا هو النّموذج الكامل الّذي يجب عليك أن تتّبعيه.

فمعنى ذلك بكلام مختصر: لأجل أن تحصل إرادة الخير، وينتفي من قلبك إرادة العلوّ والفساد، ما هو المطلوب؟

- ✓ معرفة سيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم.
- ✓ ومعرفة شريعته الكاملة.
- ✓ ومعرفة هديه وسَمْتُهُ صلّى الله عليه وسلّم.
- ✓ وإبراز هذا أمام عينيك بحيث أنّه لا يمكن أن يمرّ على لسانك أحد تصفينه بأنّه عظيم أو مثلك الأعلى أو الشّخصيّة المهمّة! أو الّذي تقولين: (أنا أفعل مثل فلان أو مثل فلان) لا تقولي إلّا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وهذا يصل بالنّفس مؤكّدًا، **يعني:** من المؤكّد أنّك ستصلين إلى إرادة الخير، وستدفعين إرادة العلوّ والفساد من المؤكّد.

فالحلّ الآن أن تمتلئ القلوب بمعرفته صلّى الله عليه وسلّم، معرفة هديه، وسَمْتِهَ، وعلاقاته مع الخلق الّذين كانوا معه، صحابته الكرام، وأعدائه، وزوجاته؛ بحيث أنّك تتصوّرين: هذه الشّخصيّة كيف أنّها مرفوعة عند الله ومع ذلك هي في غاية من التّواضع، ومن إرادة الخير.

فإذا امتلأ القلب بذلك، ورأى حبّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- لأصحابه، فوقع في قلبه حبّهم، ورأى تواضعه -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى لأعدائه، فيقع في القلب حبّ هذا المسلك، ويطهر القلب من إرادة العلوّ.

الله يشفينا جميعًا من الأمراض. أسأل الله -عزَّ وجلَّ- بمنّه وكرمه أن يجمعنا على خير.

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.